الفصل السادس

الإستشراق والسيرة النبوية

المبحث الأول

مسلّمات بشأن تاريخ السيرة ومفارقات في التفسيرات والآراء

قبل الولوج في موضوع الدراسات التي صنّفها المستشرقون الأوائل والمعاصرون حول سيرة النبي عليه أفضل الصلاة والسلام، لا مندوحة من ذكر عدد من المسلّمات المتعلقة بالجوانب المصدرية والواقعية لتاريخ السيرة النبوية الشريفة وعدد من المفارقات ـ من وجهة نظرنا ـ بشأن التوجّهات الإستشراقية والتفسيرات عن هذا الموضوع المهم في تاريخنا العربي والإسلامي.

وقد حفّزني الى البحث عن هذه المسلّمات والمفارقات الدعوة التي عرضها المستشرق البريطاني المعاصر مونتغمري وات W.Montogmery Watt، الذي يعدّ من أبرز المستشرقين المهتمين بدراسة السيرة النبوية الشريفة خلال الستينيات من القرن العشرين. إذ ألّف نخبة من المؤلفات أهمها: محمد في مكة، محمد في المدينة، محمد النبي ورجل الدولة، والفكر السياسي الإسلامي(١) وغيرها من البحوث والدراسات في دائرة المعارف الإسلامية [طبعة جديدة] وفي المجلات العالمية. هي دعوة تشير إلى العنصر الأساس في تفّهم موقف المستشرقين بخاصة والأوربيين بصورة عامة من موضوع السيرة النبوية وعن مواقفهم حيال الدّراسات العربية والإسلامية.

والمعروف عند المؤرخين والباحثين العرب والمسلمين المعاصرين أن البروفسور وات مصنّف ـ حسب تصنيف العرب للمستشرقين ـ ضمن قائمة المستشرقين

---

(١) عن إسهامات مونتغمرت وات

- Watt: Muhammad at mecca London, New york 1953.

ترجم إلى اللغة العربية، ترجمة شعبان بركات (محمد في مكة).

- Ibid: Muhammad at Medina London, New York 1956.

وقد ترجمه الأستاذ شعبان بركات إلى العربية (محمد في المدينة).

- Ibid: Muhammad prophet and statesman London, New York 1961.
- Ibid: Islam and the integration of society (London 1961).
- وقد ترجم كتابه الفكر السياسي الإسلامي (المفاهيم الأساسية صبحي حديد/ ١٩٨١).

W.Montegomery Watt, Muhammad: Prophet and statesman (1969) p. 36-235.

المحايدين، عند بعض هؤلاء في عرضه وتفسيره ومناقشته لأحداث السيرة النبوية. ويعدّ عند البعض الآخر من المستشرقين المعتدلين في رؤيتهم وتوجّههم لهذا الموضوع وغيره من موضوعات التاريخ العربي الإسلامي وحضارته، ومن المنصفين لقضايا أمتنا التراثية والتاريخية عند البعض الثالث. وجميعهم على حق في هذه التصنيفات والآراء.

أشار وات إلى دعوته تلك في ملحق من الملاحق التي ذيّل بها كتابه (محمد في المدينة) ثم كرّر هذه الدعوة في كتابه الآخر الذي بقي باللغة الإنجليزية (محمد الدولة ورجل الدين Muhammed: Prophet and Statesman الذي طبع أولاً في عام ١٩٦١ ضمن موضوع عام يحمل عنوان (تقويم Assessment) ويحتوي على عنوان جانبي يشتمل على فقرة الدعوة بعنوان (إخفاقات أخلاقية مزعومة)[١] The Alleged Moral Failures. وهي موجهة إلى المؤرخين العرب والمسلمين مع أنه يكتفي بالإشارة إليهم بتعبير (مسلمين Muslims) التي من المحتمل يقصد بها أيضاً المسلمين عامة. ومما هو جدير بالملاحظة أن البحث سيعتمد النصوص الإنجليزية لا الترجمة الى اللغة العربية لسببين أولهما:- الأهمية التي تكمن في الإشارة إليها. وثانيهما:- ضرورة إعادة ترجمة ما سبق ترجمته لعدم إيفاء الترجمة العربية للكتابين (محمد في مكة، ومحمد في المدينة) أحياناً ولمخالفتها لما هو متوقع لحقيقة رأي المستشرق. يقول المستشرق وات ما نصّه:-

((Muslims, however claim that he (Muhammed) is a model of conduct and character for all manlind....Though the world is increasingly becoming one

---

(١) لقد ترجّم هذه الجملة الأستاذ شعبان بـ (مآخذ أخلاقية مزعومة) وهي ترجمة بتصرف.

والجدير ذكره أن الباحث سوف يعتمد على النصوص بالإنجليزية بدلاً من الأعتماد على الترجمة العربية، وذلك لأن، في الترجمة: في بعض الحالات المهمة جداً، تصدق بحيث أن الفكرة الأساسية للمؤلف وكما هو منصوص عليها في النصّ الأصلي تصبح غامضة، مع العلم بأن الأستاذ شعبان قد بذل جهداً مشكوراً في ترجمة هذا الباب.

ترجم الأستاذ شعبان هذه الكلمة بـ (يعلن المسلمون أن محمداً... الخ) وتعبير Claim بوضعه الطبيعي الذي يريد به المستشرق هو (يزعم أو يدّعي المسلمون... الخ) ينظر (محمد في المدينة) (ترجمة شعبان بركات بيروت) ص ٥٠٨.

world, it has so far paid scant attention to Muhammed as a moral exemplar)).[1]

فهو يرى في هذا النصّ أن المسلمين، على أية حال، يزعمون أو يدّعون أن محمداً هو الأنموذج في الخلق وحسن التصرّف للإنسانية جمعاء.. ومع أن العالم أصبح على نحو متزايد عالماً واحداً، فإن محمداً لم يثر إلا اهتماما ضئيلاً حتى الوقت الراهن لأن يكون هو الأنموذج أو المثال العالي في الخلق.

وعلى ضوء هذه المقدمة فإن وات يعرض دعوته على المسلمين ـ من المفكرين والمؤرخين والعلماء ـ قائلاً:

((It is still open to the Muslims of today, however, to give the rest of the world a fuller and better presentation of their case. Will they be able to sift the universal from particular in the life of Muhammed and so discover moral principles which make creative contribution to the present world situation? Or, if this is too much to expect, will they at least be able to show that Muhammed's life is one possible exemplification of the ideal for all humanity? If they make a goodcase, some chirtians will be ready to listen to them and to learnwhatever is to be learned[2]).

ففي هذا المقطع من كتابه يضمّن المستشرق وات شروطا في الدعوة إلى الكتابة عن سيرة النبي محمد عليه الصلاة والسلام، وهي شروط من وجهة نظره حتميّة في محاولة توضيح السيرة النبوية للعالم المسيحي فيقول:-

ما زال الأمر مفتوحاً (أو مباحاً) أمام المسلمين اليوم ـ على أية حال ـ في أن يقدّموا إلى بقية العالم عرضاً أكمل وأفضل لقضيتهم. فهل بإمكانهم نخل (أو غربلة). العام عن الخاص في حياة محمد. وبذلك يكتشفون المبادىء الأخلاقية التي تعدّ إسهاما خلّاقاً للموقف أو الوضع العالمي في الوقت الحاضر؟ أو إن كان ذلك أكثر بكثير ممّا هو متوقع، فهل بمقدورهم ـ على الأقل ـ البرهنة بأن حياة محمد هي المثل الأنموذج لكل البشرية. فإذا ما أعدّوا برهاناً جيداً فإن بعض المسيحيين سيكونوا مهيئين للإصغاء إليهم وأن يتعلموا ما يمكن تعلمه منهم.

---

(1) Watt: Muhammad: Prophet, p. 235.

(2) Ibid

إذن فالمستشرق وات يعتقد ـ وهو كما ألمحنا سابقاً من المستشرقين المعاصرين ـ بأن المفكرين العرب والمسلمين لم يوّفقوا حتى وقت كتابة الدعوة في أواخر الستينيات في عرض قضيتهم فيما يتعلق بحياة النبي العظيم محمد إلى الأوربيين، مبيّناً سيرة النبي وكأنها قضيّة معروضة للنقاش بين طاعن بها أو مدافع عنها. ولذلك يختتم دعوته تلك بالرأي الآتي الذي يتضمّن أبعاداً تستحق المناقشة فيقول:-

((In this enterprise the difficulties confronting Muslims are immense. A combination of sound scholarship and deep moral insight is needed, and this combination is rare. My personal view is thatMuslims are unlikely to be successful in their attempt to influenceworld opinion, at least in the sphere of morals))(١).

وترجمة هذا النصّ:-

إن العقبات أو الصعوبات التي تواجه المسلمين في مثل هذا المشروع الصعب enterprise ضخمة جداً. إن ما نحتاج إليه توليفة أو مزيج من البحث العلمي القويم ومن البصيرة الحصيفة النافذة. ومثل هذه التوليفة نادرة عند المسلمين، ووجهة نظري الشخصية أنه من غير المحتمل أن يوّفق (المسلمون) في محاولتهم في التأثير على الرأي العالمي، وعلى الأقل (لم يوّفقوا) في مجال الأخلاق ـ يعني أخلاق الرسول عليه الصلاة والسلام ـ. فالمسلمون ـ حسب التعبير الذي تردّد في دعوة المستشرق وات ليس بإمكانهم التأثير في الرأي العام العالمي وهم لا يستطيعون أن يجعلوا هذا الرأي العام إيجابياً في مواقفه حيال أخلاق الرسول، وبأنه كان نبيّاً مرسلاً وصادقاً وأميناً ووفيّاً. وعلى هذه القاعدة التي أسّس عليها رأيه يخلص إلى الخلاصة الآتية في الموضوع الذي تضمّن الدعوة وهو (الإخفاقات الأخلاقية المزعومة) فيقول:

((But towards convincing Christian Europe that Muhammed is theideal man little, indeed nothing, has so far been accomplished))(٢).

وترجمة النصّ: غير أن ما يتعلق بإقناع مسيحي أوربا بأن محمداً هو الرجل الأمثل

---

(1) Ibid

(2) Ibid..p. 236.

لم يتحقق حتى الآن إلا القليل والواقع أنه لم يتحقق أي شيء البتة.

(٢)

يتبين من العرض السابق أن البروفسور وات قد بدأ دعوته ببناء مغري ومباشر. فالدعوة موجّهة إلى العلماء والباحثين العرب والمسلمين يدعوهم فيها إلى الضرورة القصوى في إعادة نظرهم ومناهج بحوثهم ـ أي العرب والمسلمين ـ في دراسة السيرة النبوية متّخذين أساليب جديدة ومعتمدين على أدوات البحث العلمي! التي حدّدها المستشرق بشرطين أساسيين: -

١- بحث علمي سليم وقيّم.

٢- نظرة حصيفة تميّز الصحيح من الخطأ.

وحسب رأيه في كون هذين الشرطين لم يتوفر وجودهما في البحوث العربية والإسلامية بشأن سيرة الرسول الكريم. وهي الشروط عينها التي يؤمن بها بعض المؤرخين العرب الذين يدرسون في أوساط جامعية أوربية أو ممّن استقر في سكنه في أوربا أو أمريكا أمثال البروفسور محمد أرغون على سبيل المثال لا الحصر. ففي كتابه المترجم (الإسلام، أوربا، الغرب) يقول في مقدمته ما نصه:

((من منّا لا يشعر اليوم بالضرورة القصوى لاستخدام كل مناهج العلوم الإجتماعية... قلت الحاجة القصوى للتفكير الجدي أو العلمي، وليس الاكتفاء بتلك الخطابات الأيديولوجية التي تهيمن علينا اليوم بشكل مطلق تقريباً... ينبغي أن ننظر إليها ـ يعني الأمور ـ من خلال منظورات لم تعرف من قبل. وذلك لكي نقدّم صورة أخرى غير الصورة السائدة في الإسلام والغرب))[1].

فدعوة الأستاذ أرغون المترجمة عام ١٩٩٥ لا تختلف عن سابقتها في المحتوى والهدف، وهو الآخر قد خلص إلى نتائج متشابهة مع تلك الخلاصات التي سبق للبروفسور وات تحديدها.

ولكن عودة إلى أفكار البروفسور (وات) فبعد عرض دعوته المغريّة جداً يخلص إلى

(1) See Edward W. said: Orientalism (New York:pantheon 1978).

نتيجة حاسمة وهي في جوهرها ناقضة للبناء الشامخ الذي شيّده في البداية؛ ومفادها أن الباحثين العرب والمسلمين لا يقدرون على نخل المعلومات التاريخية عن النبي محمد وعن أخلاقه ولم يقدروا على غربلتها ليميزوا بين ما هو عام وما هو خاص في حياته، وأنهم لم يوفقوا في الكشف عن المبادىء الأخلاقية وبذلك يكونوا قد أسهموا إسهاما مبدعاً وخلّاقاً لأوضاع العالم في يومنا هذا. فهو كما مرّ آنفا قد هدم البناء الذي أراد تشييده في رسم صورة لشخصية الرسول الكريم لتكون أنموذجاً من النماذج الإنسانية التي يجب أن تحتذى. وواقعياً فالمستشرق وات قد وصل إلى هذه المحصّلة متغافلاً عن حقيقة تاريخية ألا وهي أن شخصية الرسول الأعظم تعدّ بالفعل أنموذجاً وهدفاً في الإقتداء لملايين من الناس في عالم اليوم، أعني مسلمي العالم. ألم يكن هذا الأمر كافياً، أم أن هذه الملايين قد وقعت في خطأ الاختيار لأنها لم تتّبع المنهج العلمي والنظرة الحصيفة الفاحصة التي نصح البروفسور وات باتباعها. ثم هل نحن (العرب) بالفعل تنقصنا هذه الأدوات البحثية التي تعدّ ألف باء في موضوعات منهج البحث التاريخي في مراحل الدراسة الجامعية الأولى؟

حقيقة:

الذي ينفعنا من دعوة المستشرق وات في هذا الميدان مسألة في غاية الأهمية وهي قصور مؤرخينا العرب والمسلمين، ولا سيما أولئك المهتمون والمتخصّصون بتاريخ السيرة النبوية في أن يخرجوا من محيطهم الضيّق وتكون إسهاماتهم ودراساتهم معروفة في الوسط العلمي العربي والإسلامي والعالمي كالحال التي صارت فيها مؤلفات وات ـ الذي نخصّص هذا البحث مثلاً عن مؤلفاته ـ وغيره من المستشرقين الأوائل منهم أو المعاصرين ـ ممّن تميّزت إسهاماتهم بالأصالة والقوة أو بالضعف ـ معروفة لا بل نافذة وتحتلّ مكانة غير قليلة في بحوثنا ودراساتنا. ويخيل لي أن هذا القصور يرجع إلى عوامل عديدة منها ما هو متعلق بالجوانب العقيدية ومنها ما يعزى إلى الجانب العلمي والإجتماعي. لكنه بالفعل نقص قد جرّ إلى نتائج سلبية متمثّلة بعدم اعتراف الغرب حتى الوقت الحاضر، أو على أقل تقدير حتى زمن وات في الستينيات من القرن العشرين بالمؤرخ العربي والمسلم المهتّم بتاريخ السيرة. على الرغم من صدور عدد كبير من الدراسات التاريخية الخاصة والعامة عن شخصية الرسول الكريم وشمائله وأخلاقه وباللغة العربية. فالإشكالية في بحوثنا العربية أنها لم تقرأ في الغرب ـ وفي

الغالب لم تقرأ من العرب والمسلمين خارج الحدود المحلية ـ الّا من فئة ضئيلة من المفكرين الغربيين. وإن معظم هؤلاء الغربيين يتوجّهون إلى قراءة ما يكتب عن الرسول في لغاتهم لذلك تبقى الأفكار والتفسيرات الخاطئة عن تاريخنا وسيرة نبينا سائدة بينهم وفي العقلية الغربية ـ وبضمنهم المستشرقون ـ وسرعان ما يتأثرون بما هو معروض في هذه المؤلفات، علماً بأن الكثير من هذه الدراسات الأجنبية لا تحتوي على معلومات تاريخية موّثقة إنما تعتمد على أفكار جاهزة ومعلوماتها ـ وهذا هو الأهم ـ ومنهج كتابتها لا تقارن بالمعلومات الموّثقة التي تحتويها الدراسات العربية والإسلامية عن السيرة النبوية. فيلاحظ البروفسور ساندرز Saunders مثلاً في كتابه (تاريخ الإسلام في العصور الوسطى) عند حديثه في الفصل الثالث عن الفتوحات الإسلامية التي استقى معلوماتها أصلاً من مؤلفات بتلر Butler وكلوب باشا، يذكر أن المصدر الأساس والأصلي المتوفّر عن الفتوحات هو باللغة الإنجليزية ـ وهذا يدلّ على عدم معرفته باللغة العربية ـ هو البلاذري (الذي ترجمه فيليب حتيوورغتن بعنوان جذور الدولة الإسلامية بجزأين المطبوع سنة ١٩١٦-١٩٢٤)[١]. في الوقت الذي يعتمد فيها المؤلف أو المؤرخ العربي والمسلم على مؤلفات عديدة عن الموضوع لا كتاب فتوح البلدان للبلاذري فحسب. سقت هذا الكلام دليلاً على منهجية بحث المستشرق مقارنة بمنهجية الباحث العربي والمسلم. ولكن مع كل هذا الذي نقوله فإن كتاب (محمد في

---

(١) من بين الدراسات العربية الجادّة:

محمد مصطفى الأعظمي: المستشرق شاخت والسنة النبوية (في كتاب مناهج المستشرقين/ مطبعة مكتبة التربية العربي لدول الخليج ١٩٨٥)، كذلك بحث التهامي نقره: القرآن والمستشرقون في نفس الكتاب: د. قاسم السامرائي: الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية (الرياض ١٩٨٣) د. عماد الدين خليل: المستشرقون والسيرة النبوية (في كتاب.. مناهج المستشرقين) نبيل بيهم: الاستشراق علم موضوعي أم سياسية مقنعة (مجلة الطريق/ بيروت/ عدد ٥/ ١٩٨١) د. عرفان عبد الحميد: المستشرقون والإسلام (بغداد ١٩٦٩)، د. عبد الجبار ناجي: تطور الاستشراق في دراسة التراث العربي / بغداد ١٩٨١، د. فيصل السامر: الفكر العربي في مواجهة الفكر الغربي (بغداد ١٩٧٢)، د. عبد المالك التميمي: الاستعمار الثقافي في منطقة الخليج العربي (مجلة الباحث عدد ١٣/ ١٩٨٠)، د. محمد حسين علي الصغير: المستشرقون والدراسات القرآنية (بيروت ١٩٨٣) د. جواد علي: تاريخ العرب في الإسلام (السيرة النبوية) ج١ (بغداد ١٩٦١) عمر فروخ ومصطفى الخالدي: التبشير والاستعمار في البلاد العربية (بيروت ١٩٧٠).

وقد تم عقد ندوات علمية عن الاستشراق في بعض البلدان العربية.

مكة) أو (محمد في المدينة) لمونتغمري وات هو المعروف والمتداول وهو الذي استحوذ وما زال يستحوذ على الذهنية الأوربية، ناهيك عن المؤلفات العربية والإسلامية. وفي الإتجاه نفسه فإن كتاب أدورد سعيد (الإستشراق) هو الذي أثار ضجّة في أمريكا وأوربا منذ صدوره إلى الآن لأنه قد كتب باللغة الإنجليزية لا الدراسات العربية العديدة التي تناولت الإستشراق بقدر من العلمية والمنهجية بشكل أفضل وموضحة أهداف الإستشراق وتوجهاته والمراحل التي مرّ بها لكن تلك الدراسات واقعيا ليست معروفة. والمستشرق البريطاني المعروف برنارد لويس مثلاً قد انتقد دراسة أدورد سعيد وأخذ عليه في الرأي القائل بأن الإستشراق قد ولد في أواخر القرن الثامن عشر وهو رأي سعيد. في حين لم تقع الدراسات العربية التي تناولت هذا الجانب التاريخي من الإستشراق في مثل هذا الخطأ وأن الحركة الإستشراقية ـ إن جاز لنا التعبير ـ ترجع إلى نحو النصف الأول من القرن السادس عشر فقد تأسّس كرسي اللغة العربية في الكوليج دي فرانس College de France في سنة ١٥٩٩، وتأسس الكرسي الثاني للغة العربية في هولندا في جامعة ليدن سنة ١٦١٣. أما في بريطانيا فقد تأسس كرسي اللغة العربية في جامعة كمبردج سنة ١٦٣٣[(١)]. غير أن هذه الآراء لم تكتب بالإنجليزية فيعرفها الأوربيون، إذن فقصور الكتابات التاريخية العربية والإسلامية لم تكن ـ كما بيّن البروفسور وات رأيه ـ في أنها فقيرة في منهجها البحثي أو في أصالة مرجعيتها أو في نفإذ بصيرة مؤلفيها إنما في حقيقة الأمر لأنها لم تصل إلى أوربا ولم يقرأها الفرد الأوربي الإعتيادي ناهيك عن المفكر الأوربي والمستشرق الأوربي والأمريكي وغيرهم. فإن أهم مرجع يتردّد ذكره في الدراسات الإستشراقية عن المفاصل المختلفة من التاريخ العربي الإسلامي هو كتاب الأستاذ فيليب حتي (تاريخ العرب) وكتاب الأستاذ جرجي زيدان (تاريخ العرب قبل الإسلام، أو التمدن الإسلامي) دون غيرهما من الدراسات، والأسباب في ذلك بديهية وتعلن عن نفسها.

إذن، أقول، على الباحثين العرب والمسلمين واجب ضخم يتركّز على نقل آرائهم

---

(١) ينظر، مكسيم رودنسون: الصورة الغربية والدراسات العربية الإسلامية بحث في تراث الإسلام (تحقيق د. شاكر مصطفى: الكويت / ١٩٧٨) ص ٢٧.

As an historical problem fuck/J.Islam European historloraphy since 1800" in Historians of the Middle East.Ed. By B. Lewis (1964) p. 36, 37,38.

آربري: المستشروقن البريطانيون (ترجمة محمد الدسوقي/ لندن ١٩٦٤) ص ١٥-٢٠.

وكتاباتهم عن السيرة النبوية الشريفة وعن الرسول إلى أوربا وبلدان العالم الأجنبية وبلغاتهم بدلاً من استنزاف الطاقات والإمكانات في اتخاذ مواقف الدفاع عن السيرة النبوية ومناقشة آراء المستشرقين فقط. وعلينا أن نتحول الى مجرد مترجمين فحسب. فالأوفق أن نأخذ دوراً آخر، دور من يعرض الأفكار للمناقشة لا من يستمر في المدافعة.

ومع كل هذا فللعلماء والباحثين في تاريخ السيرة النبوية من العرب والمسلمين مسلّمات مصدرية يكاد لا يختلف عليها اثنان منهم. وأن هذه المسلّمات هي نفسها لا تبدو مسلّمات بالنسبة الى المستشرقين. وهذه العناصر والمسلّمات هي:--

١- يعتقد الباحثون العرب والمسلمون بأن القرآن الكريم يعدّ المصدر الأساس في ترصين الحديث عن السيرة النبوية وعن الرسالة الإسلامية والوحي وعن اختيار الله سبحانه وتعالى محمد بن عبد الله رسولاً ومبشراً. كما يعتقد هؤلاء الباحثون بأن الحديث النبوي الشريف الذي صار موثوقاً عند علماء الحديث عن أئمة أهل البيت وعن مؤلفات الصحاح يتضمن قدراً مهماً من المعلومات الخاصّة بالمفاصل المتعلقة بالسيرة النبوية وبشخصية النبي عليه أفضل الصلاة والسلام. وهناك عدد من الآيات الكريمة التي تمثّل المفتاح الرئيس في دراسة السيرة وشمائل الرسول وفضائله. فقد قال تعالى في سورة الكهف: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[1]. وجاء في آية أخرى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۞ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۞ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۞ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۞ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۞ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۞ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۞ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾[3] وقال الله عزّ وجل ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾[4] وقال تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۞ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۞ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۞ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾[5] وقال تعالى في

---

(١) سورة الكهف آية ١١٠.

(٢) سورة الأنعام آية ١٦١.

(٣) سورة الضحى آية ١-٨.

(٤) سورة النساء آية ١٦٣.

(٥) سورة النجم آية ١-٥.

سورة التكوير: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۞ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۞ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۞ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۞ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ۞ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۞ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾[1]. وجاء في سورة الزخرف ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ۞ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۞ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[2]. وقوله تعالى في سورة القلم: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۞ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۞ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۞ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۞ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۞ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[4].

وممّا لا جدال فيه ولا غموض أن تلك الآيات الكريمة وغيرها هي المصدر الواقعي تاريخياً ومنهجياً عن مصداقية نبوة النبي وهي المعبّر الصريح عن صفاته وأخلاقه، وبالقدر نفسه من الأهمية فإن الآيات الكريمة قد قدّمت شواهد ربّانية عن سيرة النبي عليه الصلاة والسلام، فقد تضمنت الإدعّاءات والتخرصّات التي كان المشركون في مكّة يعلنونها ويصرّحون بها مرّاراً وتكراراً تعريضاً وتشكيكاً بنبوة الرسول وصدق رسالته وأخلاقه وهي توازي أو بالأحرى تسير بخطّ مواز تماما للإدعّاءات والتفسيرات التي أسّس عليها المستشرقون تفسيراتهم ومواقفهم.

نخلص من كل ما سبق ذكره أن القرآن الكريم هو أيضاً المصدر الذي اعتمده المستشرقون الأوائل وعدد من المعاصرين على ترجماته المتوفرة باللغة الإنجليزية أو غيرها من اللغات كاللاتينية وإن كتاب الله العزيز هو المصدر الأساس لدى الباحثين العرب والمسلمين في هذا الميدان.

٢- والباحثون العرب والمسلمون يرون أن المصادر الإسلامية (بمعنى المظّان) حول تاريخ السيرة النبوية الشريفة هي عربية لغة وتأليفاً ومنهجاً وهدفاً إبتداء من مغازي عروة بن الزبير المتوفى عام ٩٤هـ / ٧١٢م ومروراً بمغازي ابن شهاب الزهري المتوفى ١٢٤هـ / ٧٤١م وسيرة ابن إسحاق ومغازيه والسيرة النبوية لأبان بن عثمان البجلي الشيعي وغير ذلك من مؤلفات الطبقات والتراجم والتاريخ. وواقعياً فإننا لا نملك

---

(١) سورة التكوير آية ١٩-٢٥.

(٢) سورة الزخرف آية ٢٩-٣١.

(٣) سورة القلم آية ١-٤.

(٤) سورة الحاقّة آية ٤٠-٤٢.

بديلاً عن هذه المصادر العربية الأساس بل ليس هناك ما يماثلها دقّة وشمولاً ومعاصرة (وهنا نقصد بالمعاصرة أولئك الرواة الروّاد الذين دخلوا مصادر أساس في سلسلة رواة هذه المؤلفات) في تواريخ الأمم المجاورة والحضارات المجاورة وقتئذ كاليونانية أو الرومانية أو الفارسية أو الهندية. فالمظّان الإسلامية بقدر ما تحمل من أهمية في المعلومات التي تضمنتها بقدر ما هي مهمة مصدرياً في اعتمادها على رواة من الأئمة ومن الصحابة والصحابيات ممن عاش مع الرسول وشهد معه أحداث الأمة الخاصة والعامة، وممن كان قريباً جداً من حياة الرسول عليه الصلاة والسلام الشخصية والأسرية وممّن كان يعدّ السلسلة السندية الأساس التي تصل الى أبي العائلة الرسالية محمد.

ولمجرد المناقشة والمحاججة فإن بمقدور الباحث أي باحث، وأحصر دائرة النقاش بالباحث المستشرق، إذا ما استغنى عن هذه المجموعة من المصادر الأساس أو أنه إذا ما رفضها برمتها أو شكك بمصداقية المعلومات التي وردت فيها جميعها أو بعضها أو حتى إذا ما اتّبع منهج الإنتقاء لما شاء من روايات فيها تدعم رأيه هنا ورأيه هناك فإن الإشكالية الملحّة تبقى قائمة في وجه عزوفه عن هذه المصادر أو بعضها. وهي أنه وغيره من المستشرقين لا يملكون بديلاً عنها في مؤلفاتهم عن تاريخنا العربي الإسلامي. والمصادر اليونانية والرومانية [التي نطلق عليها المصادر الكلاسيكية] لم تسعف المستشرقين في تقديم مادّة علمية تاريخية شاملة ورصينة وذات وحدة وموضوعية. ولهذا السبب فإن مستشرقاً مبشراً مثل (هنري لامانس) الذي صنّف كتباً وبحوثاً كثيرة عن السيرة وتاريخ صدر الإسلام قد وقف موقفاً مضاداً من الحديث النبوي الشريف وشكك بصورة مطلقة في صحة هذه الأحاديث، وبكل ما ورد بخصوص المعلومات التي تسلّط الضوء على أمانة النبي وصدقه واصفاً إياه بتعبير تهجمي هو La grand dormeur (الحالم العظيم) لم يوّفق كليّاً في عزوفه عن المصادر الإسلامية الأساس وعن الحديث الشريف. وكان مضطراً إلى الرجوع إلى بعضها والاعتماد عليها ولا سيما في الجوانب التي توافق تفسيره وموقفه. فهل كان لامانس - إذا ما طبقّنا شروط البروفسور وات - علمياً في موقفه المصدري. فمن الطبيعي كان موقفه غير علمي ولم يتبع أبسط قواعد المنهج البحثي، فعليه أن يدلي بمعلومات من مصادر أخرى غير تلك التي رفضها كليّة أو رفض بعضها بحجة عدم مصداقيتها.

فالمستشرقون شاءوا أم أبوا وجدوا لا مناص من الاعتماد على مؤلفات السيرة

النبوية ومؤلفات الطبقات والتراجم والرجال وأقتبسوا منها كثيرا أو قليلا ولكن من زاوية توافق قراءتهم وتتواءم مع وجهات نظرهم الجاهزة أو المعدّة سلفاً. والحقيقة فهذه العملية هي في الأساس تمثّل جوهر الاختلاف في منهج البحث وأدواته عند المستشرقين أنفسهم وفيما بينهم وبين منهج الباحثين العرب والمسلمين، وهذا الاختلاف ليس بما له علاقة بمدى صحة المعلومات أو فيما إذا كانت موثوقة أم لا، فكتاب السير وليم موير William Muir الموسوم بـ The life of Mohammad (حياة محمد) أن هو، في واقع الحال،الّا ترجمة ـ في الغالب ـ لما ورد ذكره في السيرة النبوية لابن هشام وفي الطبقات الكبرى لابن سعد(١)

٣- أما المسلّمة الثالثة التي تدعم ما ذكر آنفا في إبراز أهمية المظّان الإسلامية في الكتابة التاريخية العربية أو الغربية عن السيرة النبوية، فهي تلك التي تخصّ جانباً مصدرياً غير الذي تمّ ذكره آنفا، الاوهو الدليل المادي كالآثار والمخلّفات المادية كالنقود ووثائق البردي ووثائق الجنيزا وغيرها من الأدوات البحثية الجديدة التي تؤكد أو تخطّىء صحة الروايات النظرية المدوّنة.فمدينة مكّة المكرّمة مهد الرسالة ومهبط الوحي والمدينة المنورة وقبر الرسول الكريم وقبور الأئمة في البقيع وقبور الصحابة والصحابيات ما زالت ماثلة بما لا يقبل الشكّ في وجودها. وإن التنقيبات عن الآثار فيهما وما ظهر لحد الآن من وثائق أوراق البردي والجنيزا قد تكشف القصّة الحقيقية لظهور الإسلام وأمور أخرى لها علاقة بحقبة الرسالة.

فضلا عن هذا الجانب المصدري المادي فإن المتشكك في الموضوع ندعوه إلى أن يتحقّق ـ على وفق منهج البحث العلمي ـ من مصادر أخرى كأن تكون يونانية أو حبشية أو قبطية أو فارسية. وهناك في هذا الصدد تلميح إلى مصدر معاصر نوعاً ما إلى أحداث الخلافة وإلى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ولاسيما حقبة فتوح مصر فيه ذكر لمرحلة الرسالة، إنه تاريخ ألّفه أسقف مصري أو أنه عاش في مصر وهو يوحنا

---

(١) ينظر عن موقف لامانس

Gabriel, F:Muhammad and the conquests of Islam (Translated by Luling and Linell London 1968) p. 19.

Salibi, G: (Islam and Syria in the writings of Henri Lammens) in The Historiane of the Middle East, p. 339.

النيقي John of Nikiu. ولد يوحنا زمن فتح مصر وتحريرها، وقد تدرّجت به الأحوال إلى ان يتولى منصباً رفيعاً مشرفاً على الأديرة النصرانية عام ٦٩٦م. لقد شهد يوحنا ذلك الأقبال الواسع في اعتناق أهالي مصر الإسلام، وأنه لم يستطع إخفاء غضبه الشديد هذا في تاريخه الذي كما يبدو قد وضع أصلاً بالقبطية ثم ترجم إلى الحبشية ومنها ترجم إلى الإنجليزية. فلقد وقف يوحنا موقفاً معارضاً للإسلام ديناً وللنبي محمد شخصياً فأطلق على الدين الإسلامي تحاملاً ((دين أعداء الله أو دين الوحوش The faith of beasts)). (لكنه من جانب آخر يشير إلى النبي فيقول عن اعتناق المصريين الإسلام ما نصّه ((وفي أيامنا هذه ارتدّ كثير من المصريين ممّن كانوا نصارى كذباً، فهجروا الديانة القويمة وتركوا التعميد ودخلوا في الإسلام دين أعداء الله، وقبلوا دين الوحوش دين محمد، وتعاونوا مع عبّاد الأصنام وحملوا معهم الإسلام وحاربوا النصارى))(1). ويشير ساندرز في كتابه المذكور آنفاً خلال حديثه عن معركة أجنادين سنة ١٤هـ / ٦٣٥م إلى رواية معاصرة مصدرها أسقف نسطوري عبّر فيها عن مشاعره وموقفه إزاء المعاهدة التي عقدها خالد بن الوليد مع أهالي دمشق فقال:-

(The Arabs to whom God has in our day accorded the dominion, have become our masters, but they do not war against the Christian religion, rather they holy men an make gifts to our Churches and convents).

ويقول هذا الأسقف: (إن العرب الذين منحهم الله الهيمنة، قد أصبحوا سادتنا، لكنهم لم يحاربوا ضد الدين المسيحي، والأحرى أنهم كانوا يحمون عقيدتنا ويحترمون رهباننا ورجالنا القديسيين ويقدّمون الهدايا إلى كنائسنا وأديرتنا).

ففي أمثال تلك الروايات وأمثلة أخرى أوردها البرفسور جيسي روبنسون Chase F.Robinson في كتابه الذي ترجمته الى اللغة العربية (تحت الطبع) الموسوم بـ (التدوين التاريخي الإسلامي) ذكر واقعيّ للإسلام ونبي الأمة، فلا حاجة إلى أن يجهد المستشرقون أنفسهم في التشكيك بالإسلام ونبوة محمد عليه الصلاة والسلام ومصداقية وجوده أو صدقية الرسالة الإسلامية. فالبحث الدؤوب للرّد على المستشرقين بلغتهم ينبغي أن يكون في اعتماد الباحثين العرب والمسلمين على اللغات القائمة آنذاك وما تم العثور عليه من تواريخ ووثائق ومؤلفات أمثال يوحنا النيقي

(1) See sir William Muir: The Life of Mohammad (From original sourees) Edinburg 1923.

ويعقوب الرهاوي وغيرهما من المصادر المعاصرة أو التي تعاصر حقبة الأمويين والعباسيين.

(٣)

هدف نسعى إلى تحقيقه:

فمن الناحية المنهجية فإن الأدلّة السابقة وهي الأدلّة المصدرية المدوّنة أو المادية قد انفردت بها السيرة النبوية عن باقي سير الرسل والأنبياء الذين اختيروا لتبليغ رسالة التوحيد وعبادة الله تعالى كاليهودية والنصرانية. ففي الوقت الذي يجد فيه الباحث العربي المسلم والغربي مادّة تاريخية غنيّة ـ وفي أحيان كثيرة بإمكانه غربلتها ودراستها دراسة متأنية لتكون أدوات أساس في رسم الهيكل الخاص والعام لحياة الرسول الكريم وسيرته وصفاته وأخلاقه من دون ظهور ثغرات تاريخية واسعة ـ لا يجد الباحث الغربي والعربي مادة تاريخية مماثلة في الأهمية والواقعية للكتابة بشكل علمي ومقنع عن سير الأنبياء (عليهم السلام)، الذين سبقوا الرسول. ويخيل أن الأكتفاء بما ورد في التوراة (وهي بوضعها الحالي) أو بماجاء في الإنجيل [وهما كتابان مقدّسان دون شكّ] فقط لن يساعد على تهيئة ورسم هيكلية شاملة لحياة النبي موسى والنبي عيسى.

ففي هذه الحال على مؤرخينا في الوقت الحاضر و المهتمين بدراسة السيرة النبوية الشريفة وتاريخ العرب والمسلمين خلال القرن الأول للهجرة أن يوسّعوا من ثقافتهم المصدرية وصولاً إلى وضع مخطّط شامل علمي وهادف عن المظهر العالمي للسيرة النبوية ومصداقية الرسول الكريم بدلاً من الأكتفاء بما هو موجود من مصادر إسلامية على الرغم من الأهمية البالغة للمعلومات التي احتوتها. وأقصد هنا توسيع المعرفة بالتواريخ المحلية للدول المجاورة للعرب وللإسلام آنذاك كتاريخ الحبشة وتاريخ مصر وتاريخ الأقباط وتاريخ السريان في بلاد الشام وتاريخ اليهود وتاريخ الفرس وتاريخ الصين وتاريخ الهند وتاريخ بيزنطة في القسطنطينية وتاريخ روما. كذلك توسيع المعرفة عن تاريخ تطوّر الديانة المسيحية والفرق التي تأسست في بلاد الشام والجزيرة الفراتية كالنسطورية واليعاقبة مثلاً. فلعل الباحث وهو أمر مؤكد ـ سيعثر على معلومات تاريخية مهمة ـ تغيّر من آراء المستشرقين وتحيلها إلى سراب بعد أن ترسّخت

وأصبحت المحاور الأساس التي تحملنا على الدفاع أوالإتكاء على المسوغات.

(٤)

مفارقات في الكتابة التاريخية عن السيرة النبوية:

فالمسلّمات التاريخية السابقة التي يقبلها ـ على الأقل معظم المؤرخين والباحثين العرب يجدر أن تكون عملية في توجّه كتاباتنا نحو هذا الميدان المهم من تاريخنا ولكن. . .

١- بدأ الاهتمام بدراسة السيرة النبوية، والتاريخ العربي الإسلامي في عهد الرسالة والخلافة الراشدة وبعدها، بصورة مكثّفة ومثيرة للاهتمام والجدل من المؤلفين الأجانب سواء أكان ذلك مستنداً الى أسّس علمية في البحث أم غير علمية. فالأجانب من أوربا وأمريكا وبلدان الإتحاد السوفيتي إنشلغوا بدراسة هذه الموضوعات منذ مدّة طويلة جداً.

فإذا ما جعلنا دراسة دانكونا D'Ancona الإيطالي المنشورة في مجلة الدراسات التاريخية والأدبية عنصراً للإشارة إلى قدم هذا التوجّه في دراسته التي تحمل عنواناً مغرضاً وهو(أسطورة محمد في الشرق[1] La Leggenda di Maomatto in Occidenta) فإن اهتمام الأوربيين بدراسة سيرة النبي ترجع إلى القرن الحادي عشر للميلاد. فيذكر المستشرق البريطاني سإذرن Southern بإن كلاً من غيلبرت النوجيني Guilbert of Nogent وهيدلبرت التوري Hildbert of Tours وهما من القرن الحادي عشر ألّفا عن الإسلام بحقد دون أن يعتمدا على مصادر تاريخية إسلامية أو غير إسلامية، فقد اندفعا للكتابة عن عصر الرسالة بهذا الإتجاه السلبي لا لشيء إلا لأن ـ كما أشار إلى هذا المستشرق الإيطالي فرانسيسكو غبريلي Gabrieli بقوله الآتي واصفاً مؤلفات غيلبرت

---

(١) وكتاب يوحنا النيقي

The chronicle of John, Bishop of Nikiu (Translated into English by R.F. Charles 1916).

وقد أعتمد عليه المرحوم الدكتور جواد علي في كتابه القيّم تاريخ العرب في الإسلام (السيرة النبوية) / بغداد ١٩٦١) ص ٢٠.

وهيلدبرت بأنها ((Vituperation and hatred entirely consistent in the spirit))[1] - ([كتاباتهما وآرائهما متناغمة كليّة مع روح الكره والقدح والذم] وعلى هذا الأساس فقد اعترف غيلبرت النوجيني مثلاً بعدم اعتماده على أي مصدر تاريخي مسوغا ذلك بقوله إنه: (لا جناح على المرء إذا ما ذكر بالسوء كل من يفوقه خبثا بكل سوء ممكن أن يتصوره المرء)[2].

وبقي هذا الاهتمام عند المستشرقين عبر القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد، فنال من عناية بطرس الناسك Peter the Venerable ذي الدور الفعّال في إثارة مسيحيّ أوربا ضد الإسلام. لذلك يمكننا عدّ اهتمامه بالدين الإسلامي لا لأسباب علمية فقط إنما لتحصين (المناضلين المكافحين كما يرى) ـ ضدّ العدو المواجه ألا وهو الإسلام. كان بطرس الناسك نواة لتجمّع عدد من الأنصار حول مبادئه لمساعدته في هذا المشروع الكبير. ومن المعروف تاريخياً لبطرس الناسك يرجع الفضل في تحقيق حلم البابا أوربان الثاني في التحفيز ضدّ المسلمين، وفي التبشير لأول حملة صليبية في العصور الأوربية الوسطى. وأعقب بطرس الناسك في هذا المجال يعقوب الفيتري Jacques de Vitry ومارتينوس بولونيوس Polonus. وفنسنت أوف بوفيه Vincent of Beauvais وآخرين.

فإذا ما افترضنا هذه الإسهامات الغربية المدوّنة لها علاقة ـ سواء أكانت كبيرة أم محدودة وثيقة الصلة أم ضعيفة ـ بالإستشراق الأوربي، مع مراعاة أن من أهم الكتابات الأوربية القديمة بشأن الرسول عليه الصلاة والسلام وبشأن التاريخ العربي الإسلامي عامّة وبضمنها السيرة النبوية قد ألّفت في بريطانيا حوالي الربع الأخير من القرن السابع عشر للميلاد، عندئذ ندرك العمق التاريخي للاهتمام الأوربي في هذا الميدان من تاريخنا الإسلامي ويقدّم دوافعه وأغراضه. فقد ألّف المستشرق البريطاني همفري بريدو Humphry Prideau وهو راهب في كنيسة السيد المسيح Christ Church في أكسفورد كتاباً بعنوان (حياة محمد The life of Mohamet) واختار لهذا العنوان عنواناً جانبياً ينمّ عن الحقد والبغض والكره لرسول الله وهو:-

---

(١) أنظر د. عبد الجبار ناجي: تطور الاستشراق في دراسة التراث العربي (بغداد ١٩٨١) ص٨٦-٨٧.

(2) See I.D' Ancona: "La Leggenda di Maometto in Occiedente" in Studi di Critica estoria letteravia (1912) Vol 11 pp.167-306.

The true nature of imposture fully displayed in the life of mohamet. [1]

وترجمة هذا المقطع من العنوان هو :- الطبيعة الحقيقية للدجّال كما هو مصور بصورة كاملة في حياة محمد.

وهذا العنوان يكاد يتشابه من حيث الفكرة والهدف مع العنوان الذي أطلقه دانكونا باللغة الإيطالية والذي سبقت الإشارة إليه وهو La leggenda in Maomatto in Occidenta أي (أسطورة محمد في الشرق).

كان بريدو يدرس اللغة العربية في أكسفورد، ولهذا أهمية في معنى توجّهه ضدّ الإسلام، فالملاحظ أن كتابه قد حقّق نجاحاً سريعاً في بريطانيا إذ نفذت الطبعة الأولى وأعيد طبعه مرتين في السنة نفسها التي صدر فيها أولاً عام ١٦٩٧م، ثم أعيد طبعه بعد ذلك عدّة طبعات لاحقة، فضلا عن فالكتاب قد ترجم إلى اللغة الفرنسية بعد سنة واحدة من صدوره باللغة الإنكليزية أي سنة ١٦٩٨. وهذه الحال تظهر مدى اهتمام أوربا والأوربيين في التعرف على شخصية الرسول الكريم بهذا الشكل المزيّف وغير العلمي. عندئذ فلا غرابة أن يكون الأوربيون مهيئين ومزودين بمثل هذه الأفكار الجاهزة سواء كان ذلك لدى الفرد العادي أو المثقف الأوربي أو بشكل عام في العقلية الغربية.

وأنجز في هذه الحقبة المستشرق البريطاني جورج سيل George Sale الذي يعدّ من أوائل المستعربين البريطانيين ممّن أعدّ ترجمة جيدة للقرآن الكريم في سنة ١٧٣٤م. ومع أن هذه الترجمة قد جاءت بعد ترجمة الكسندر روس Ross في القرن السابع عشر للميلاد، لكن الحقيقة تعدّ ترجمة سيل أفضل لكون ترجمة روس وصفت بإنها غير جيدة وكانت مجافية للواقع وحاقدة على الإسلام والنبي. فقد اختار روس عنواناً هادفاً لوجهة نظره أو لتفسيره لكتاب الله تعالى وكونه من تأليف الرسول الكريم، والعنوان هو The Alcoran of Mohomet قرآن محمد. لقد فاقت ترجمة سيل الترجمة الرديئة التي قام بها روس شهرة وانتشاراً بين صفوف البريطانيين، واعتمد جورج سيل في الترجمة على تفسيرين عربيين لتفسير وشرح آيات الذكر الحكيم هما :- تفسير البيضاوي وتفسير السيوطي[٢].

---

(1) Gabriell, op. cit., p. 120.

(٢) أنظر مكسيم رودنسون: الصورة الغربية [تراث الإسلام] ص ٣٤.

بعد ذلك توالت الدراسات الإستشراقية في كتب وبحوث تتعلق بالسيرة النبوية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر لا في بريطانيا وحدها بل في بلدان أوربية مختلفة. ففي فرنسا ـ على سبيل المثال ـ تأسّس أول كرسي للغة العربية في سنة ١٥٣٩ في الكلية الفرنسية (الكوليج دي فرانس)، ولهذا فإن المستشرقين من أمثال سكاليجر Scaliger وأستاذه جورج بوستل Postel ـ وهما مبشّران قد عنيا باللغة العربية وتعلّمها وتعليمها ـ كما كان فولتير الكاتب الفرنسي المشهور ـ خلال عصر الإستنارة ـ من المهتمين بالحضارة العربية الإسلامية؛ وتحدث عن الرسول الكريم في تراجيديا من التراجيديات الرائدة في فرنسا وهي ذات دلالات سياسية - أدبية، وعنوانها Mahomet التي نشرت أولاً في سنة ١٧٤٢.وألّف المستشرق الفرنسي كونت هنري دي بولنيفيه Count H. de Boulainvillers كتاباً شاملاً باللغة الفرنسية يحمل عنوان Vie de Mohomet ـ حياة محمد ـ وصدر هذا الكتاب أولاً سنة ١٧٣٠ م. والظاهر أنه لاقى رواجاً في فرنسا وأوربا وولاسيما بريطانيا التي استحوذ على سوقها الفكري كتاب (همفري بريدو) عن حياة محمد (صلى الله عليه وآله) فقد ترجّم إلى اللغة الإنجليزية بعنوان The life of Mohomet ولعل من أبرز ما يمكن قوله بشأن هذا الكتاب أن مؤلفه تبنى آراء وتفسيرات مخالفة للآراء التي كانت سائدة في كتابات المبّشرين ورجال الدين في العصور الوسطى. ومع أن المستشرق بولينفيه لم يكن متقناً للعربية فقد اعتمد على ما سبق تأليفه من دراسات خاصة بالسيرة النبوية بلغات أجنبية. كان بولينفيه يعتقد بأن ظهور الإسلام يعد تحدياً قوياً للنصرانية فيقول ما نصّه : ((إن كان ما جاء به محمد من مبادىء دينية هو صحيح، مع إنه ـ النبي ـ لم يأت بكل ما هو حقيقة. هذا هو عنصر الاختلاف بين ديننا ودينه[1]. وظهر كتاب آخر في فرنسا يحمل الإتجاه نفسه والتوجّه وهو كتاب المستشرق ليبنز Lebinz وعنوانه Mahomet no imposte (لم يكن محمد دجّالاً)، وقد فنّد فيه مؤلفه التفسيرات الأوربية في العصور الوسطى. كذلك ألف المستشرق جانيه J,Gagnier كتاباً عن حياة محمد باللغة الفرنسية بجزأين[2]. وركّز في الكتاب على مناقشة آراء كلّ من المستشرق البريطاني همفري

---

(1) Gabriell, op. cit., p.12.

(٢) ينظر عن بريدو

P.M. Holt: The Treatment of Arab History by Prideaus, Oclay and Sale" in the Historians of the Middle East/ pp. 290-302.

بريدو والمستشرق الفرنسي بولينفيه.

وينبغي عدم إغفال أن أوّل كتاب ظهر في أوربا إمتدح فيه مؤلفه الرسول الكريم وصوّره تصويراً بطولياً، مبيناً صدق نبوته، ومعقباً بل ومفنّداً آراء أولئك الذين طعنوا في السيرة ونالوا من شخصية النبي وصدقية رسالته، هو كتاب توماس كارليل Th.Carlyle الموسوم بـ العربية (الأبطال) وعنوانه بالإنجليزية On the heroes and heroworship أي الأبطال وعبادة البطل.فقد صنّف كارليل رسول الله ضمن تصنيفه للأبطال في التاريخ. ونشر هذا الكتاب أولاً في سنة ١٨٤٠[1] وكسب تأييداً وشهرة واسعتين في أوربا بشكل خاص والشرق عموماً. إنه كتاب حري بالباحثين العرب والمسلمين أن يطّلعوا عليه، لأنه يمثل منعطفاً في الكتابة التاريخية البريطانية بشأن السيرة النبوية.

فهذه الكتابات التي عمدنا إلى ذكرها، التي سبق لنا تكرار ذكرها في هذا الكتاب؛ لأنها تتماشى ومميّزات المراحل التاريخية التي شهدتها مساهمات المدارس الإستشراقية، ما هي إلا امثلة قليلة ولا تشير إلى أنها تمثّل جميع ما قد تمّ توثيقه في الغرب عن السيرة النبوية موضوع بحثنا. ولكن الهدف الأساس من الإشارة إلى هذا النزر القليل هو توجيه الإنتباه إلى قدم الاهتمام الأوربي الإستشراقي أو غير الإستشراقي بموضوع السيرة النبوية.

وقد شدّدت على أن هذه الاهتمامات هي مفارقة واضحاً فلماذا هي مفارقة؟ أقول الأولَى أن يبدأ المؤرخون والباحثون العرب والمسلمون من المحدثين والمعاصرين على حدّ سواء بهذه الدراسات فيكونوا أوّل من يبادر بالتأليف عن نبي الأمة واعتماداً على المؤلفات الأساس التاريخية والتراجمية ومؤلفات السيرة النبوية الأصلية بهدف قطع الطريق العلمي أمام الكتابة عن سيرة النبي؛ لا أن يترك المجال مفتوحا أمامهم فيكون المستشرقون والأوربيون هم الأوائل في المبادرة فتتركّز دراساتهم وفرضياتهم وتفسيراتهم باللغات الأوربية الحيّة عن هذا الميدان، لذا صاروا يتلقون الأفكار والتفسيرات فيدافعون عن صحيحها ويخطئون من أخطأ، فبهذا سجل المستشرقون قصب السبق العلمي.

---

(1) Ibid.

٢- أما المفارقة التاريخية الأخرى فهي:

بينما كان المستشرقون في بريطانيا وفرنسا وغيرهما أوّل من ألّف المؤلفات الخاصة بسيرة النبي، وبعضها بأجزاء تناولت العديد من مفاصل تاريخنا العربي الإسلامي وحضارتنا وهم يعتمدون المخطوطات التي حقّقوها أو التي ظلّت على شكلها. والذين راجعوا المصادر العربية ـ محدودة أو كثيرة ـ أو التي ترجّمت من العربية إلى لغاتهم.

كان موقف مؤرخينا العرب المحدثين في بداية نهضة الكتابة التاريخية في القرن العشرين، وربما إن جاز القول في نحو منتصف هذا القرن موقفاً لا يحسد عليه. فقد تبنّوا في مؤلفاتهم التاريخية العامة عن التاريخ الإسلامي أو الخاصة تلك التي تدور حول السيرة النبوية دور المساجل والمناقش والمفنّد لآراء هذا المستشرق المعادي أو ذاك، وهم يجهدون أنفسهم في تصنيف المستشرقين وفي الدفاع عن تأريخ السيرة. والغريب أنهم أحياناً يستنجدون برأي هذا المستشرق أو ذاك لغرض دعم مواقفنا العربية والإسلامية من موضوع السيرة النبوية. فالذي يطالع على سبيل المثال مؤلفات الدكتور حسن إبراهيم حسن وأحمد أمين وطه حسين والعقّاد وهيكل وفيليب حتي (مع أن هناك رأياً عربياً يجعل حتي ضمن قائمة المستشرقين) وجرجي زيدان (كذلك يعدّه البعض مستشرقاً) وغيرهم من روّاد الكتابة التاريخية والأدبية عن السيرة يجد أن هؤلاء العلماء العرب قد عبّروا عن مواقفهم ضمن تصنيف المدافع أو المناقش أو الرافض للتفسيرات الإستشراقية أو أحياناً دور المادح والمؤيد لتفسير أحد المستشرقين، الذي كان في رأي هؤلاء هو مستشرق معتدل ومنصف. فالدكتور حسن إبراهيم حسن يخصّص جانباً من الباب الثالث من تاريخه الذائع الصيت (تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والإجتماعي) الذي صدرت أول طبعة له عام ١٩٣٥م، بعنوان (المستشرقون والرسالة) فيستخدم تعبيرات من هذا القبيل ((يقول السير توماس أرنولد)) أو ((ويذكر بعض المؤرخين أن الإسلام... الخ من بينهم وليم ميور)) أو يردّد قول ((يعزو بعض المستشرقين إلى الرسول أموراً يشمئز منها الذوق السليم..)). ويقول الدكتور حسن أيضاً ((ويريد بعض المستشرقين أن يقلّل من أهمية الرسالة)) وغير ذلك من التعبيرات الدفاعية أو المعارضة. ومما يلفت النظر ان الدكتور حسن قد اعتمد على كتاب السير توماس آرنولد الذي ترجمه إلى اللغة العربية وعلى الأدلّة التي أدلى بهاالمستشرق في البيان عن إنسانية الدين الإسلامي وبأنه لم يكن ديناً مقصوراً

على الجنس[1] العربي فحسب.

٣ـ والمفارقة الثالثة هي:-

في الوقت الذي وصل فيه الإستشراق [أو الحركة الإستشراقية إن صحّ التعبير] غايته واكتملت مراميه واستنفّذت والأحرى تنفذّت مشاريع المستشرقين البحثية ومنهج بحث موضوع السيرة النبوية المهم جداً بالنسبة إلينا وإلى التاريخ العربي الإسلامي، وفي الوقت الذي تحقّقت فيه أغراض المستشرقين والمبشرين ودوافعهم في الكتابة التاريخية عن الشرق وعن التاريخ العربي الإسلامي العام وعن الحضارة العربية الإسلامية، وبما قاموا به من جهود مضنية في تحقيق المخطوطات النادرة من تراثنا ونشرها ودراستها؛ بعد كل هذه النتائج السريعة التي تظهر دأب المستشرقين في تعلّم اللغة العربية واللغات الشرقية أعلنوا أنهم قد بلغوا المطاف في مؤتمر الإستشراق الأخير في باريس. فقد تبين سابقاً أن المستشرقين أسّسوا [منذ حقبة العصور الوسطى الأوربية وإن لم يكن تعبير الإستشراق شائعاً ومتداولا آنذاك حتى عصر النهضة الأوربية وما بعد ذلك عندما شاع استخدام التعبيرالإستشراق Orientalism [مفاهيمهم وتفسيراتهم ومناهج بحثهم بخصوص السيرة النبوية بين قادح يقدّح في سيرة الرسول الكريم وبين متشكّك يشكّك في نبوته ووجوده وصدقه وإمانته وأخلاقه وسجاياه؛ وبين طاعن في الرسالة الإسلامية والوحي الألهي والقرآن الكريم بأكمله؛ وبين من يراه بعض الباحثين العرب والمسلمين منذ منتصف القرن العشرين تقريباً مستشرقا معتدلاً في آرائه وتوجّهاته ومواقفه.إذ لم يعد في حقيقة الأمر ثمّة موضوعات جديّة أخرى ـ في نظرهم ـ أو بالأحرى ليس هناك من ضرورة لمتابعة هذا النوع من الدراسات الخاصّة بالسيرة النبوية، في الوقت الذي صار الغرب ـ بمعنى الإستعمار الغربي ـ ينظر إلى الشرق العربي والشرق الإسلامي على إنه مصدر ثراء أوربا ومصدر تموينها وتغذية آليّتها التقنية والإقتصادية. أقول بعد هذه المرحلة الطويلة من المثابرة والجهد المضني من المستشرقين، أعلنوا في المؤتمر الدولي التاسع والعشرين للإستشراق الذي تمّ عقده في باريس صيف سنة ١٩٧٣ بأن تسمية الإستشراق والمستشرقين قد أستنفذت أغراضها ودوافعها، وبأن المؤتمرات الإستشراقية بالكمال والتمام عبر هذه المسيرة التي استغرقت قرناً من الزمان (فقد عقد أوّل مؤتمر لهم عام ١٨٧٣ وكان المؤتمر

---

(١) ينظر مكسيم رودنسون: الصورة الغربية ص ٩٦؛ أيضاً OP, Cit, p.300, Holt.

الذي عقد عام ١٩٧٣ بمثابة إحتفال بالذكرى المئوية لهذه المؤتمرات]. وما أن أعلن هذا التصريح حتى وقف جميع المستشرقين إلى جانبه وحصل على الدعم الكامل، ولم تجدِ نفعاً الدعوة المعارضة للوفد السوفيتي وحلفائه الذي دافع عن ضرورة الإبقاء على المصطلح (أي الإستشراق). وهكذا أسدل الستار بعد مائة عام من انعقاد المؤتمر الأول في باريس أيضاً على التعبير بشكل نهائي كما عبّر عنه المؤتمرون. إذ كان تأسيس أول مدرسة للغات الشرقية بإشراف المستشرق الشهير سلفستر دي ساس تقرر عدم جدوى الإستمرار في هذا المنهج. واتفق المستشرقون على استبدال التعبيرليكون عنوان المؤتمر (المؤتمر الدولي للعلوم الإنسانية في آسيا وأفريقيا الشرقية)، بدلاً من عنوانه السابق (المؤتمر الدولي للمستشرقين)[١]. والمتعمن في التسمية الجديدة لا يجد أي صلة بين العلوم الإنسانية في آسيا وأفريقيا وبين الإستشراق، مع أن التسمية الجديدة للمؤتمر تمثّل أنعطافاً يتصّل اتصالاً قوياً بالتحوّلات في المواقف السياسية الجديدة التي ظهرت آثارها بوضوح في آسيا بصوزة عامة وفي أفريقيا الشرقية بشكل خاص.ما هو وجه المفارقة في الحقيقة السابقة؟ أقول بعد أن قرّر المستشرقون ضرورة التحوّل في التوجّهات لضرورة تبديل التسمية بعد أن بذلوا قصارى جهودهم في تعلّم اللغات الشرقية وبعد عناء البحث والتنقيب وتحقيق المخطوطات العربية ونشرها وبعد ما أنجزوه من الكتابت والتأليف على شكل مجلدات أوكتب أوبحوث أومقالات في دائرة المعارف الإسلامية [الطبعة القديمة والطبعة الجديدة] قرابة قرنين من الزمان [بافتراض أن بداية الدراسات عن الرسول الكريم قد ظهرت في القرن السابع عشر الميلادي] وربما لأكثر من قرنين بكثير [بافتراض كتابات رجال الدين في العصر الكنسيوالعصور الوسطى وكتابات المبشرين تعدّ إرهاصات الحركة الإستشراقية). وذلك لأن هذه الكتابات المجافية للحقيقة وللتاريخ قد شغلت مناهتمام رجال الدين والوقوف ضدّ الإسلام والنبي الكريم وهي التي زوّدت المستشرقين منذ القرن السابع عشر للميلاد بخلفيات وفرشات جاهزة من التفسيرات ومن التخرصّات غير العلمية فمن شاء من المستشرقين أن يؤسّس عليها فرضيات وتفسيرات أومن شاء أن يناقشها ويعارضها عندئذ يصنّف المستشرق بكونه منصفا ومعتدلا.

فعندما انتهت مهمة المستشرقين وتحوّلت اهتماماتهم ـ بل اهتمامات المؤرخين الأوربيين فيما بعد السبعينيات من القرن العشرين ـ إلى دراسة الإسلام المعاصر لا

---

(١) مكسيم رودنسون ص ٢٦٦.

إسلام حقبة الرسالة بدأت الأقلام العربية وشرع مفكرونا ومؤرخونا العرب والمسلمون تسليط الضوء الخافت على السيرة النبوية من جهة، وعلى تسليط الضوء الساطع والمعلن على الحركة الإستشراقية من جهة ثانية

وتسارعوا وهم منشغلون فيما بينهم الى تأسيس حقولٍ فكرية لتصنيف المستشرقين ووضع كلّ منهم في هذه الحقول وجعلهم في كفتي ميزان:- من هو المعادي من المستشرقين لتراثنا الإسلامي وسيرة رسول الأمة العظيم عليه أفضل الصلاة والسلام،؟ ومن هو المعتدل منهم في آرائه وتفسيراته؟، ومن هو المنصف لقضايا أمتنا التاريخية والحضارية؟، ومن هو العلمي في منهج بحثه؟ وهكذا. . . وإذا ما اتفقنا على أن الكتاب الببلوغرافي القيّم، الذي صنّفه الأستاذ العقيقي عن المستشرقين وصدر في أواخر الستينيات من القرن العشرين، يعدّ من أوائل الكتابات في هذا الميدان، على الرغم من وجود حقيقة لا بدّ من توضيحها وهي أن الكتاب لا ينظر إليه بوصفه دراسة نقدية لإسهامات المستشرقين في هذا الحقل من تاريخنا وحريّ بنا وصفه - كما ألمحنا - بالدليل التعريفي الوصفي للمستشرقين واسمائهم على وفق بلدانهم وتبيان أسماء مؤلفاتهم ونشاطاتهم.إنه من دون شكّ عمل شاق جداً وقد برع بل وفّق الأستاذ العقيقي في مصنفه هذا الذي لا يمكن الأستغناء عنه في البحث عن الإستشراق والمستشرقين فهو دليل قيّم جداً.ويخيل أن الدراسات النقدية العربية الهادفة [سواء تلك التي تدعم المواقف العربية الإسلامية أو التي أقتصرت على تفنيد ومناقشة أوتسفيه الآراء والتخرصّات الإستشراقية بشأن السيرة النبوية على وجه خاص] قد ظهرت بصورة جليّة في السبعينيات وشرعت تنْمو وتتزايد في الثمانينيات والتسعينات حتى أخذت الجامعات والمعاهد العلمية هنا في العراق وهناك في الأقطار العربية والإسلامية تهتم بموضوع الإستشراق والمستشرقين، وأحياناً دخل الموضوع ضمن البرامج الدراسية ومناهج الدراسات الأولية والعليا في الجامعات والمعاهد.

وأعني بهذه المفارقة أن الباحثين العرب والمسلمين قد بدأوا نشاطاتهم عن التعريف بالمستشرقين وبتفسيراتهم وتجنياتهم ضدّ السيرة النبوية عندما أغلق ملّف الحركة الإستشراقية من قبل المستشرقين أنفسهم، واستبدلوه بميدان دراسة آخر عن الإسلام المعاصر والحركات الإسلامية المعاصرة وهلّم جرّا، والله يعلم إلى متى سيظل هذا التوجّه فعّالاً ومتحركا في المؤتمرات والنشاطات الأوربية المكثّفة حتى

يأتي دورنا نحن الباحثين العرب والمسلمين في مسائل التعقيبات والمحاججات.

(٥)

وقفة مع مستشرق معاصر:

واقعياً ليس من المبالغة القول بإن اهتمام الأوربيين وتوجّهاتهم [إذا كنّا غير موافقين على قرار المؤتمر الدولي للأستشراق في أبطال تعبير المستشرقين التسمية فقط وأبقينا لوحدنا نسميهم بهذا التوصيف] بالنسبة الى موضوع السيرة النبوية قد شهد انحساراً ملحوظاً في الوقت الراهن. صحيح أن هناك دراسات لكنها متفرقة وذات دوافع محدودة ولا سيما أن أغلب مؤلفيها من اليهود. لكن المهم الإشارة الى من تبقى من المستشرقين الذين أسهموا كثيراً في منتصف القرن العشرين في الدراسات التاريخية والإسلامية فهم بالفعل قد جوّلوا نشاطاتهم إلى دراسة الإسلام المعاصر والإتجاهات الفكرية في الإسلام أو إلى الفكر السياسي في الإسلام أو الحركات المعارضة في الإسلام أو موضوعات مثل السلطة في الإسلام والإسلام والعلم وغير ذلك، يركزون بشكل أساس على أوضاع العالم الإسلامي في هذه المرحلة من الصراعات الدولية أو لنقل بكلمة أخرى من العولمة السياسية والإقتصادية وعلى دور الإسلام ـ الدين والحضارة ـ في الأحداث السياسية حيال دور القوميات. والمستشرق المعاصر الذي سنقف معه في هذه الوقفة هو البريطاني (الإسكتلندي) المشهور في عالمنا وبقية الأنحاء مونتغمري وات يمثّل في الحقيقة هذا الصنف من المستشرقين الذين حوّلوا مناهتماماتهم، ولعل الصحيح قوله بأن حقبة نشاط وات الجّاد' والمثمر' في ميدان السيرة النبوية هي حقبة الستينيات من القرن العشرين.

والجدير بالذكرأن البروفسور وات معروف بين أوساط الباحثين والمؤرخين العرب والمسلمين والمتخصّصين في موضوع السيرة النبوية بالدرجة الأولى وغيرهم. وهو بالنظر إلى التصنيف العربي المعاصر للمستشرقين قد وضع في صنف المستشرقين المنصفين، ولذلك فإنه قد تسلّم دعوات عدد من البلدان العربية والإسلامية لإلقاء محاضرات في التاريخ الإسلامي فزار عدداً من بلداننا العربية بترحيب علمي حارّ فضلا عن أن الباحثين العرب اعتمدوا مؤلفاته والكثير من أفكاره في دراساتهم عن السيرة النبوية. ودرس بعض الباحثين منهج وات في هذا الميدان مسلّطين الضوء على

عدد من آرائه فخلصوا إلى آراء مغايرة أي تجعله من صنف آخر وكونه مستشرقا ليس محايداً إلى هذه الدرجة أو بالأحرى إلى الدرجة التي وصف بها[١]. وعلى الرغم من أن أمثال هذه الدراسات النقدية المقارنة للمستشرق وات وغيره هي دراسات جادّة، لكن ملاحظة متواضعة ينبغي طرحها وهي:- (إن اعتماد أي باحث يريد دراسة مؤلفات وات ومعرفة منهجه معرفة صحيحة لابدّ من أن يكون قريبا بشكل مباشر من مؤلفاته باللغة الإنجليزية لأن الاعتماد على المؤلفات المترجمة مع أهميته لا يقدّم فوائد عملية كثيرة، فالترجمة العربية لأهم مؤلفات وات وهي (محمد في مكة) و(محمد في المدينة) التي نهد بها بجدية الأستاذ شعبان بركات جيدة دون شكّ لكنها في عدّة مجالات بحاجة إلى إعادة نظر أوإعادة ترجمة. فالمستشرق (وات) يتمتع بذكاء حادّ وسمعة علمية جيدة في نظر الباحثين ويتمتع بسيطرة لغوية حاذقة، ولذلك فإنه يميل إلى استخدام تعبيرات أوكلمات مفهومة عند القارىء لأنها مألوفة في ترجمتها لأول وهلة. ولكن أحياناً وعند الرجوع إلى المعاجم اللغوية الإنجليزية المفصلة ينكشف الغطاء عن مدلولات لا توافق الفهم المألوف، وربما يكون المستشرق وات قد أدخل في هذه الكلمة أو تلك أو في هذا المصطلح Term أو ذاك معنى وهدفاً آخر ذا دلالات إستشراقية وسأقف على بعضها لمجرد الإشارة.

يقول المستشرق وات في كتابه (محمد في المدينة) واصفاً عدوانية الكتابات التبشيرية ضد النبي قائلاً:-

((of all world's great men none has been so much maligned as Muhammad. For centuries Islam was the great enemy of Christendom))[٢].

وترجمة هذا النصّ (ليس هناك بين جميع الرجال العظام في العالم شخصية قد افتري عليها أو أوذيت كما أوذي محمد. وكان الإسلام لقرون عديدة هو العدو الأكبر للعالم المسيحي).

وله قول آخر في الدفاع عن السيرة النبوية بوجه الكتابات هو:

---

(1) See Carlyle. The: on the heroes and hero worship (1840).

وقد ترجمه الأستاذ علي أدهم إلى العربية بعنوان (الأبطال).

(٢) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي [ط/ ١٩٦١) ج١ ص ١٦٦-١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠.

((At one point Mohammad was transformed in to Mahound, the prince of darkness)).[1]

وترجمة النصّ (ففي إحدى المراحل تحول اسم محمد إلى (ماهوند) الذي يعني أمير أو ملك الظلام).

بهذه المختارات من أقوال المستشرق وات الموجودة في الملحق الخاص الموسوم بـ (أخلاق محمد) في آخر كتاب (محمد في المدينة) التي كرّرها أيضاً في كتابه الآخر (محمد النبي ورجل الدولة) تسمو مرتبة البروفسور وات عند الباحثين العرب والمسلمين الى أنه كان بحق منصفا في أبراز ضآلة التخرصّات التي أشاعها رجال الدين إبان عصر الكنيسة والعصور الأوربية الوسطى تلك التخرصّات والأباطيل التي ظلّت راسخة ثابتة في إذهان المبشّرين والعديد من المستشرقين؛ إذ كانوا يكرّرونها في كتاباتهم المعنية بتاريخ السيرة النبوية.

وحريّ بنا القول بأن وات قد وقف على مثل تلك التفسيرات ضمن الملاحق التي أفردها بكتابه. واختار عنوانات ذات دلالات جديّة تتلاءم مع ما كان شائعاً في الكتابات الإستشراقية المتعلقة بالرسول الكريم وشمائله وفضائله. فمثلاً اختار عنواناً عاما شمل جميع هذه المحاور الثانوية الحوارية في كتابه (محمد النبي ورجل الدولة) وهو (Assessment تقويم). ومن بين العنوانات الجانبية التي أخضعها للتقييم والدراسة والردّ على الأفكار الإستشراقية السائدة في أوربا الموضوع الآتي:

(Appearance and manner) أي المظهر الخارجي والسلوك وهو ملحق سلّط فيه وات الضوء على أخلاق الرسول مستندا في ذلك الى الطبقات الكبرى لابن سعد. ولم يفته تضمين هذا الحديث بآراء حول الأوضاع النفسية للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام فأستخدم التعبير الآتي:-

He was given to sadness فقد أستخدم كلمة Sadness بدلاً من الاستخدامات الشائعة عند المستشرقين الآخرين التي تشير إلى حال (الصرع). لقد اختار هذه الكلمة على

---

(١) رأي برنارد لويس كما عرضه وترجّم الحوار الذي نشر في المجلد ١٤ من المجلة الأمريكية The New York Review Book الأستاذ كامل يوسف حسين وقد كتب برنارد لويس مقالة في هذه المجلة يفند آراء أدوارد سعيد في الاستشراق ويناقش كتابه.

نحو ينبغي علينا أن لا نترجمها بترجمتها المعروفة المألوفة (الحزن أو الكآبة) فقط؛ لأن وات أراد إلى حدّ كبير أن يعرض حال مرضية فكلمة Sadness ترادف الكلمات التي استخدمها المستشرقون وهي Melancholia أو Melancholy ويقصد بها مرض السوداوية والإنقباض. وهو خلال عرضه صفات الرسول ربما هدف إلى التلميح بالإدّعاء الذي شاع عند المستشرقين من أنه كان مصابا بالصرع لكن وات لم يذكر الصرع بل استبدل الكلمة بالإشارة إلى وضع صحي آخر هو السوداوية .

والمستشرق في الظاهر كان يهدف إلى الردّ على مطاعن المستشرقين الذين نعتوا الرسول الكريم بالقسوة وقسوة القلب وأنه كان فظّاً ومثيراً للحروب وأنه كان لقسوته لا يحبّ الأطفال. . الخ من التخرصات الرخيصة غير أنه في أحيان أخرى يدخل تعبيرات وكلمات قد يقصد بها أيضاً مقاصد سيئة، فمثلاً إنه يصور الرسول الكريم بكونه جادّاً ولا يثرثر في الكلام وأن ضحكته كانت أبتسامة فحسب لكنه يذكر ضمن هذا الكلام التعبير الآتي:

In his dealing with people was above all tactful. He could be severe at times(١)

وترجمة القول ((كان محمد في تعامله مع الناس فوق كل شيء، تكتيكياً، وأنه كان قاسياً أحياناً)).

وهناك عدد من الملاحظات بشأن الاستخدامات اللغوية التي طبّقها وات وهي تنحو مناحي ومقاصد عدّة لا منحى واحد كالذي يفهم أول وهلة، وإنني قد أعددت دراسة متواضعة أخرى عن هذا الجانب، لكن المثالين الآتيين لهما أهمية لابد من ذكرهما لإنهاء هذه الدراسة:-

لقد تناول وات في مجال آخر من ملاحقه في الكتاب موضوعاً حيوياً اختار له عنوان The Alleged moral failures أي (مآخذ أو إخفاقات أخلاقية مزعومة)، يشير فيه إلى الادّعاءات الإستشراقية أيضاً ومنها تلك التي تتعلق برسالة الإسلام والوحي التي دافع وات لإسقاطها معتمداً المصادر الإسلامية الأولية، غير أنه يدلّي ببعض

(١) ينظر على سبيل المثال د. عماد الدين خليل: المستشرقون والسيرة النبوية في المستشرق البريطاني مونتغمري وات [مناهج المستشرقين] ص ١١٥-٢٠١.

التسويغات للدفاع عن الرسول الكريم وهي في الحقيقة لا يمكن قبولها إطلاقاً، ولا تعدو أن تكون تفسيراً إستشراقياً حاقداً لتفسير إستشراقي آخر وحاقد أيضا ولكن بأسلوب غير مباشر. فخلال حديثه عن اتهام المستشرقين الرسول أنه كان شهوانياً يضرب المثال الآتي:-

((إذا ما قارنّا النبي بالملك عبد العزيز ملك السعودية فإن محمداً يعدّ معتدلاً في علاقاته بزيجاته))(١). فهل يجوز مقارنة وات،على وفق هذا المنهج المتطرّف، بين رسول الله الذي لم يستسلم إلى كل إغراءات المشركين واليهود والمنافقين الماديّة والإجتماعية ماضياً بعزيمة لا تهزم ولا تقهر من أجل نشر دين الحقّ، بالملك عبد العزيز بن سعود؟ ومن المؤكد أنه أحسّ بهذا الموقف الواضح وغير اللائق في المقارنة غير العلمية فحذف هذه الفقرة التي وردت في كتابه (مجمد في المدينة) الذي صدر أولاً سنة ١٩٥٦ فلم يشر إلى هذه المقارنة في كتابه (محمد النبي ورجل الدولة) الذي اعتمده في هذه الدراسة عام ١٩٦٩.

أما المثال الثاني فهو ذلك الذي يتعلق برأيه الداعم للموقف المنصف والمعتدل الذي يلتزم به في عرض السيرة النبوية ضد الرأي المتشكك في مصداقية الرسول الكريم، فأاستعمل تعبيراً هادفاً بقوله:- كان النبي يتمتع بخيال جيّاش وبقدرة جيّاشة مبدعة Creative imagination لذلك فإنه ابتدع القرآن الكريم يقول وات ما نصّه:-

In Muhammad, I should hold, there was a welling up of the creative imagination, and the ideas thus produceed are to a great extent true and sound, It does not follow, however, that all the Qura'anic ideasare true and sound. In particular there is at least one point.At which they seem to be unsound - the idea of revelation(٢)-

وترجمة هذا المقطع الذي شدّدت على بعض التعبيرات الواردة فيه لأنها تتضمّن ترجمة لها أهداف غير التي ابتدأ بها وات بناءه عن مصداقية دعوة النبي فيقول: ((على أنني أعتقد بأن هناك دون شك قدراً من الخيال الجيّاش في محمد وأن الأفكار التي

---

(1) Watt: Mohammad, prophet, p. 231.

(٢) ينظر وات: محمد في المدينة [العربية] ص ٥٠٢.

Ibid.p. 239.

قدعرضت [استخدام Produce التي تفهم في الظاهر أنتجت لكنها ربما تقابل Exhibit] هي إلى حدّ بعيد صحيحة وحقيقية وعلى أية حال فإنه لا يصح بالضرورة [وهذا ما تعنيه فعل to follow] أن جميع الأفكارالقرآنية صحيحة وحقيقية. ولاسيما أن هناك على الأقل فكرة واحدة أو موضوعاً واحداً تبدو [أي تبدو فيه هذه الأفكار] فيها غير صحيحة ألا وهي فكرة الوحي)).

فالمستشرق وات دافع عن مصداقية الرسول الكريم لكنه هدم البناء بالمحصلة النهائية التي أسقط فيها مصداقية الوحي، وهنا نجده يستبدل تفسيراً إستشراقياً حاقداً بتفسيره الإستشراقي الذي لا يقلّ حقداً. وأن مثل هذه الحالات التي يظهر فيها تشكيكه بآراء المستشرقين القدامى من جهة ثم تشكيكه نفسه تتردّد بين الحين والآخر في كتاباته بشأن السيرة النبوية.

المبحث الثاني

مواقف المستشرقين من آل بيت النبي:

في القرآن الكريم عدّة آيات كريمة تشير إلى المضمون التاريخي والإجتماعي (الأسري) لأهل البيت (عليهم السلام)، أولها آية في سورة الأحزاب بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1].

فأهل البيت هنا يقصد بهم أهل بيت النبي، أو كما أشار إليه رسول الله في حديث شريف معروف في الفكر الشيعي وهو حديث الكساء أو حديث أهل العبا: هم رسول الله والأمام علي وفاطمة الزهراء والإمامين الحسن والحسين. وهو المعنى نفسه في آية تشير إلى النبي نوح بقوله عزّ من قائل: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ * قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[2]، كذلك الآية الكريمة الثالثة المتعلقة بأبي الأنبياء إبراهيم قال عزّ من قائل خلال قصّة تبشير الملائكة لزوج إبراهيم بغلام، وأن زوجه قد تعجّبت من الأمر لأنها عجوز فأجابتها الملائكة: ﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾[3].

أقصد بهذه المقدمة أن الآيات الكريمات تلقي ضوءاً لا يقبل الشكّ في ما هو المقصود بتعبير أهل البيت، وأن الله تعالى لم يهدف إلى أن هذا التعبير قد استخدمه عرب قبل الإسلام من قبل أم لم يستخدمونه، أو أنهم قد استخدموه بعد الإسلام للإشارة الى المسلمين أو المؤمنين عموماً أو للدلالة على بني العباس أو بني هاشم حصرا. فهو أمر مألوف أن يتكرّر استعمال تعبير (آل) للإشارة إلى العائلة أو الأسرة أو القبيلة أو غيرها، أو أن يستخدم أهل البيت بأشكال واستعمالات متنوعة؛ لكن الأمر الذي يعنينا في الحديث الشريف بما له علاقة بالتشيّع فالتعبير أهل بيت النبي أو أهل

(١) سورة الأحزاب آية ٣٣.

(٢) سورة هود: آيات ٤٥، ٤٦.

(٣) سورة هود: آية ٧٣.

البيت، إنما يقصد به بوضوح ما قصدته الآيتين المتعلقتين بإبراهيم (حديث الملائكة مع إبراهيم وأهله) ومع نوح (نوح وابنه).

والمستشرقون شأنهم شأن بعض المفسرين الذين لا يرضون بل لا يرغبون في أن يكون التعبير شاملاً لرسول الله والمنتسبين إليه بنسب الأقربين نسباً فراحوا يتجولون في تفسيراتهم الهادفة إلى توسيع فحوى التعبير محاولة منهم أبعاده عن نصّه الأساس الا وهو أهل بيت رسول الله. فهناك من المفسرين المسلمين من فسّر قول الله سبحانه وتعالى بأنه يقصد به في سورة الأحزاب جميع زوجات الرسول ومنهم من قال بأنه لا يشير الى رسول الله أو إلى الأمام علي أو إلى غيرهما مباشرة إنما يشير إلى المضمون العام الذي وردت فيه آيات تتعلق بإرشادات الله تعالى وتوصياته إلى أمهات المؤمنين (أن لا يتبرجن، ولا يعملن فاحشة.. الخ). هنا أيضاً تأثر عدد من المستشرقين بهذا الجدل فتوقفوا على المرضوع بتخريجات متعددة أهمها تعبير (آل) المفردة المطلقة إذ كتب جولد تسيهر[١]. وهنري لامانس في بحوثهما (حول البيت عند العرب قبل الإسلام) وكذلك في كتاب لامانس بالفرنسية (فاطمة وبنات محمد)[٢]، وفان آرندونك Van Arendonke فبحثه (أهل البيت) وترتون في مقالته في دائرة المعارف الإسلامية[٣]، وماثير شارون Sharon في البحث الموسوم بـ People of The house. فقد التزم هؤلاء جميعاً بفكرة أن التعبير الوارد في الآيات لا يفهم منه أهل بيت النبوة المشار إليهم، والشيعة فقط هم الذين حدّدوا التعبير بكل من رسول الله والأمام علي وفاطمة والحسن والحسين. والتعبير حسب رأي هؤلاء المستشرقين هو أوسع فهماً من ذلك فهو استعمال عام كأن يكون المقصود به آل عثمان وآل أمية، ويذهب جولد تسيهر أبعد من ذلك بأن كفّار قريش أيضاً كانوا يسمّون بآل أو أهل الله، وأن العرب قبل الإسلام قد استعملوا التعبير للتدليل على العائلة الحاكمة في القبيلة. وفي الإسلام كان يشمل عائلات الخلفاء؛ وأن العباسيين حدّدوه في بني هاشم، وأنهم أي آل العباس هم أهل البيت بشكل خاص. وهكذا في غيرها من الآراء والتفسيرات التي لا

---

(١) في دائرة المعارف الإسلامية القديمة

Goldzeiher, (AL al Nabi).

(2) Lammens H: Fatima of les Filles de Mahomet (Rome 1912), idem (Le Culte des Beytl) in L'Arabic Occidentale avant L'hegira) Beirut 1928, pages 136, 145, 155.

(3) Van Arendonke (Ahl al Bayt) in Ecoydopcliq of Islam (New Edition) Volume l Pp. 257-258.

علاقة لها بأصل المسألة سوى أنهم وتقليداً لعدّد من المفسرين الذين لا يريدون ذكر أهل بيت النبوة، أو الذين لا يروق لهم حديث الكساء الذي ورد في عدد من مؤلفات الصحاح والسنن والمسانيد ويقصد به الرسول والأمام علي. ومن المؤسف جداً أن يتوسّع أمثال هؤلاء في التفسيرات التي تتعارض مع أصل مضمون الآيات القرآنية.

وانطلاقاً من أن رسول الله في العقيدة الإمامية الإثني عشرية هو أول أمام من أئمة أهل البيت، وأنه كان وما زال من الموضوعات المهمة في دراسات المستشرقين والمبشرين منذ القرن الحادي عشر للميلاد أي في أثناء العصر الكنسي والأوربي الوسيط وحتى وقتنا الراهن. إذ صنّفت فيه الكتب والرسائل والبحوث في شتّى اللغات الأوربية في الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والروسية والسويدية والهولندية وما إلى ذلك من اللغات الأجنبية حسب العنوان المتكرر عندهم وهو:-

The Lise of Mohammad.

Vie de Mohammad.

Geschecte das Leben der Mohammad.

وجميعها تركّز على السيرة النبوية في مكة والمدينة حتى انتقاله إلى جوار الرفيق الأعلى. عندئذ بات من الضروري تخصيص هذا الفصل لتتّبع محور دراسات المستشرقين وتفسيراتهم بشأن السيرة النبوية وبشأن الدعوة الإسلامية وحياة الرسول الشخصية.

للمستشرق الأسكتلندي مونتغومري وات المعروف باختصاصه ودراساته الكثيرة عن رسول الأمة ولاسيما في كتابيه (محمد في مكة)، و (محمد في المدينة) قول أورده في كتابه (محمد في المدينة) ويمثل الوصف العدواني للكتابات الإستشراقية والتبشيرية ضد النبي يقول فيه:- ليس هناك بين جميع الرجال العظام في العالم شخصية قد افتري عليها أو أوذيت كما أوذي محمد، إذ كان الإسلام لقرون عديدة هو العدو الأكبر للعالم المسيحي[1]. وأقول في الوقت نفسه بأنه ليس هناك من شخصية دينية أو سياسية

---

(1) Watt M.: Muhammad at Media (London, New York 1956) p. 235.

وقد ترجمه الأستاذ شعبان بركات إلى العربية (محمد في المدينة).

في التاريخ عامّة قد سلّطت الأضواء على دراستها أو التأليف والبحث عن سيرة حياتها من قبل المستشرقين مثلما خضع له رسول الله؛ ولاسيما حياته الشخصية ونبوته ودعوته السرية والعلنية وهجرته إلى المدينة وإنجازاته المدنية والإقتصادية والإجتماعية والفكرية والعسكرية. واختيار المستشرق هارت Hart للرسول الكريم بأنه أعظم شخصية مؤثرة في العالم من بين مائة شخصية اختارها في كتابه (أكثر الشخصيات المؤثّرة في التاريخ)[1]، هو اختيار ـ دون شكّ واقعي ـ وموفق. فقد أحصينا ـ قدر الإمكان ـ أكثر من خمسين كتاباً والكثير من البحوث باللغات الأجنبية قد خصّصت لدراسة نبي الأمة وجميعها يحمل عنوان حياة النبي. إنها محاولة إحصاء لا غير قد جمعت بين الجيلين من المستشرقين القدامى والمعاصرين، من مؤرخ وأديب وفيلسوف ومبشّر وغيرهم. وواقع الحال فمن النادر أن نجد مستشرقاً أو مبشّراً يؤلف في التاريخ الإسلامي ولم يتناول حياة الرسول وشخصيته وإنجازاته أو الدعوة الإسلامية في سنيها الأولى سواء أكان ذلك بتأليف كتب مستقلة عنه أم بتخصيص فصول كاملة في مؤلفاتهم.

مرّت دراسات المستشرقين عن رسول الله بعدّة مراحل تاريخية، ترتبط كل مرحلة ارتباطاً وثيقاً بالمتغيرات السياسية والفكرية الأوربية ومن المهم القول بأن هذه الدراسات قد تميّزت بنسبة من المزايا والسمات الواضحة.

ففي المرحلة الأولى التي تشتمل على مدة العصور الكنسية والأوربية الوسطى ظهرت عدّة كتابات لا يمكننا الجزم بأنها دراسات إستشراقية لأنها تعدّ كتابات تفتقر إلى المنهج العلمي، فضلاً عن أنها بعيدة عن الحقبة التي ظهر فيها مصطلح الإستشراق والمستشرقين في أوربا الوسطى.لكنها على أية حال تمثّل في حقيقتها البدايات لطبيعة التطوّر في التدوين التاريخي الأوربي وطبيعة تفهّم أوربا للتاريخ الإسلامي الوسيط بصورة عامة ولتاريخ الدعوة الإسلامية ونبوة الرسول بشكل خاص. هذه الدراسات فضلاً عن افتقارها الموضوعية والعلمية لكنها صارت الأسّس التي ارتكز على آرائها وتفسيراتها العديد من الآراء الإستشراقية المتأخرة. واستمر تأثيرها يحتّل نصيباً يعتدّ به في دراسة ومواقف عدد من المستشرقين في الفترات الحديثة والمعاصرة.

---

(1) Hart, M. The Most Influential Persons in History p. 4

والمعروف عن مدة العصور الوسطى الأوربية أنها عاصرت حدثاً سياسياً بارزاً لا في أوربا فحسب إنما بالنسبة إلى العالم الإسلامي ذلك الحدث هو الحروب الصليبية، عندما التقى الغرب بالشرق لقاء عسكرياً وسياسياً بالدرجة الأولى وحضارياً إلى حدّ ما. الحروب الصليبية، كما عرّفت وتعرّف في أوربا The Crusades وعرّفت في حينها عند المؤرخين المسلمين بحروب الإفرنج، واحدة من المحاولات المتكرّرة التي تحمّس لها الغربيون لأجل الإستحواذ والسيطرة على الشرق. إنها كانت في مرحلتها الأولى نتيجة لفلسفة دينية، وبعد ذلك تطوّرت لأن تكون أهدافها سياسية واقتصادية أيضاً. ولقد رافقت هذه الحروب الأوربية نتائج سلبية كثيرة وأخرى إيجابية منها ما يتعلق بموضوع البحث، فقد وجّهت أقلام عدد من الكتّاب والأدباء الأوربيين لكتابة تاريخ العالم الذي كان مسرحاً لعمليات حربية طويلة. فاندفعت هذه الأقلام إلى دراسة أحوال الشرق الإسلامي الدينية. ولذلك كان موضوع الدعوة الإسلامية والقرآن الكريم وحياة الرسول الكريم من أهم الموضوعات الدينية التي استهوت أنظار اولئك الكتّاب بتحفيز وتشجيع من الكنيسة التي وجدت في الدين الإسلامي تحدّياً دينياً خطيراً في منطقة البحر المتوسط، على هذا الأساس ترتّب أمران متلازمان هما:--

١- إن الأوائل الذين كتبوا عن تاريخ هذه المدة المبكرة من تاريخنا الإسلامي يغلب عليهم اتجاه رجال الدين أوبشكل أدق رهبان.

٢- كانت أهم التوجّهات التي حظيت باهتماماتهم دراسة الأحوال الدينية للعالم الإسلامي بسبب من أن الدين كان محفّزاً مباشراً وقوياً للمحاربين المسيحيين، ولذلك فاعتماداً على هذا من الممكن القول بأن كتابات وإسهامات هذه المرحلة اتّسمت بالآتي:

أ. التطرف في عرض الآراء والأفكار والتفسيرات المعادية للقرآن الكريم ولرسول الله وآل بيته والدعوة الإسلامية.

ب. الجهل البيّن بالمصادر الإسلامية واللغة العربية والقرآن الكريم والحديث الشريف.

ت. غلبة الطابع القصصي والخيالي ـ غير الواقعي ـ على تلك الإسهامات التي ترجع إلى حقبة العصر الكنسي والعصر الأوربي الوسيط. حقيقة أن بعض الكتاب قد

اعتمد على ما تيسر له آنذاك من مراجع عربية؛ غير أن هذا النفر القليل كان غير موثوق في طرحه الروايات الإسلامية، كما أنه عمل بجهد على تحريف هذه المعلومات أو تحويرها أو كتابتها بصيغ وأشكال بعيدة عن حقيقتها، يدل على جهلهم فضلاً عن ذلك فإن هذه المرويات والمعلومات قد وصلت أوربا عبر بيزنطة وهنا أيضاً تعرّضت إلى عمليات من التزييف والإضافة والتحريف أو الزيادة أو.النقصان.

ففيما يتعلق بالأمثلة المتعلقة بالدراسات المتعلقة بآل بيت النبي ولاسيما بالأمام علي نذكر الآتي اعتماداً على ما قدّمه المستشرق برنارد لويس B.Lewis وإيتان كوهلبرغ Etan Kohlberg، فيذكر الأول أن الغرب قد عرف التشيّع عبر معرفتهم للفاطميين والحشاشين، لذلك صار جميع ما كان معروفاً عن المذهب الإمامي الإثني عشري إن هو إلا معرفة منحازة أو محرّفة. فالمؤرخ الصليبي وليم الصوري William of Tyre في كتابه تاريخ أعمال الكنيسة عبر البحار؛ رأى الشيعة من خلال محاولته عرض طبيعة وواقع الإسلام السنيّ والإسلام الفاطمي ثم أستنتج قائلا: كان الشيعة يرون في الأمام علي بإنه النبي الحقيقي الذي أولاه الله تعالى ثقة الرسالة السماوية، وإن جبرائيل قد أخطأ في تنزيل الرسالة للأمام علي فسلّمها خطأ إلى محمد[1]. بهذه الرؤية التي تدّل بوضوح تام على جهل مطبق بتاريخ الدعوة الإسلامية وبنزول الوحي على رسول الله وبمجريات التاريخ الإسلامي وتاريخ وسيرة الأمام علي وعلاقته الأخوية مع نبي الأمة. مع العلم أن وليم الصوري قد توفي سنة ٥٨٤هـ / ١١٨٦م، أي القرن السادس الهجري بمعنى أنه كان معاصراً لمدة إزدهار المكتبة الإسلامية بكثرة المؤلفات الإسلامية التاريخية ومن ضمنها مؤلفات الرجال والمؤلفات الحديثية والفقهية وغيرها كثير. وأنها كانت معروفة جداً؛ مع ذلك يدلي وليم الصوري بمثل هذه المعلومة القصصية والخيالية التي تشير إلى جهله في التاريخ الإسلامي. وقد تردّدت مثل هذه المعلومات البعيدة عن الواقع على لسان يعقوب الفيتري Jacques de Vitey[2] في كتابه (أسقفية Bishop عكّا ١٢١٦-١٢٢٨) إذ ورد

---

(1) William of Tyre: A History of Deeds done beyond the Seas (Transleted by Emily A. Babcock and A.S Krey (New York 1943) vol 2. P323,according to Kohlberg E.Belief and low Imami Shiism (Collected Studies) Published by Variorum p. 31-33.

(2) Jacques de Vitery (or Vitriaco): Bishop of Acre 1216-1228, idem: Libri due, quorum prior orieutalie sive Hierorsolym itane (1597 Ch, 8 p, 33-34) According to professor Kohlberg in (Belief and law) p. 32-33.

فيه ما يتعلق بالشيعة وبالأمام علي معلومة مشابهة تماما لتلك التي أوردها وليم الصوري ويزعم ـ وهو على خطأ تام ـ أن للشيعة مبدأ يعتقدون فيه بأن علياً هو النبي المعروف الذي تحدّث عنه الله تعالى في القرآن الكريم. وقد تحّدث (أي القرآن الكريم) عنه أكثر مما تحدّث عن النبي محمد نفسه. وأن علياً وأتباعه هم الذين هاجموا شريعة رسول الله وأن للشيعة طقوساً في الصلاة والزكاة وغيرها من العادات هي في الواقع تختلف عن طقوس المسلمين السنة. وأشار البروفسور كوهلبرغ إلى كتاب آخر ليعقوب دي فتري ردّد فيه تلك الأقوال الساذجة[١]. وهناك أدلّة أخرى على مثل هذه القصص المزيّفة التي لا تعتمد أي مصدر موثوق إنما صدرت من وحي عقليتهم، وكانت تمثل عندهم التاريخ الإسلامي وهي السائدة في العقلية الغربية المسيحية بما تعرف بأدب الحروب الصليبية المبكر؛ ومنها ما هو متعلق بالأمام المهدي لا يستحق[٢] ذكرها في هذا المجال. ولكن السؤال المهم هو كيف وصلت مثل هذه المعلومات المحرّفة إلى الكتّاب الصليبيين في القرن السادس الهجري وما بعده؟. هل أنها كانت من بقايا الرواية الأموية المتداولة في بلاد الشام عندما كان الحكّام الأمويون العتاة قد تبنّوا سياسة لعن الأمام علي وشتمه من على منابر الصلوات؟، وحينما كانت الرواية الشيعية مغيّبة تماما، وحينما كان الأمويون يقتلون راويتها ويهدمون بيته ويقطعون رزقه؟

بهذه العقلية توجّهت كتابات مؤرخي العصور الوسطى الأوربية حول شخصية رسول الأمة وسيرته وحول نبوته، فإنهم بصورة عامّة كانوا يعرضون شكوكهم التي تدور حول شكّهم بمصداقية دعوة الرسول ونبوته، كما رأينا قبل أسطر كيف أنهم حبكوا قصصاً خيالية عن العلاقة بين رسول الله وابن عمه الأمام علي. كانت هذه

---

(1) See Daniel, V: the Arabs and Medieval Europe (London 1975) p. 215-319.

وقد ترجم إلى اللغة العربية

Ugo Monneret de Villard: IL LIbro Peregrinazione nell oarti d, Orient di frate Ricoldo de Montecroce, Rome 1948, p. 111.

(2) Daniel, N, Islam and the West (1960) p. 28, 78,: Gaberili, F. Muhammad and the Conquests of Islam(Translated by Lulling and Linell(London 1968) P.14. SOUTHERN,R. Western Views of Islam in the Middle Ages (Harvatd 1962) p. 24.28.30.

كذلك ينظر مكسيم رودنسون: الصورة الغربية والدراسات العربية الإسلامية. وهو بحث في كتاب تراث الإسلام (تحقيق د. شاكر مصطفى (الكويت ١٩٧٨) صفحة، ٢٩، ٢٨، ٢٧.

الأفكار بالنسبة إليهم مهمّة جداً وترتبط برباط وثيق وقوي بالعمل المحرّك والمحفّز للصراع الصليبي الإسلامي، لذلك شدّدوا عليه بل اختلقوا قصصاً تاريخية نظير قصة بحيرى الراهب وقصة عدّاس الراهب وقصة ورقة بن نوفل ابن عم السيدة خديجة الكبرى زوج رسول الله، لأن إثارة مثل هذه القصص كان يهدف من ورائها إظهار الأثر الديني المسيحي في الإسلام. فقد شوّه في هذا الكتابات اسم النبي تعمداً وتقصّداً فالاسم جاء على صيغة ميثوموس Methomus وماموتو Maomatto وما موتيوس Mamatius وما هوند Mahound وغير ذلك، وهي تسميات لم تذكر جزافاً ولم تأت اعتباطاً إنما تتضمن معانٍ هادفة تتوافق والخطّ التبشيري الذي سار عليه هؤلاء الكتّاب في كتاباتهم فاسم ماهوند ومامتيوس مثلاً يعني باللغة اللاتينية آلة الظلام. فضلاً عن ذلك فإن هؤلاء تخيلوا أيضاً قصصاً غريبة وعجيبة بخصوص نزول الوحي ونزول آيات الذكر الحكيم على رسول الله[1]. وأخذت هذه الأحقاد تتركّز أكثر فأكثر في كتابات سير القديسين والموسوعيين في العصور اللاتينية الوسيطة نظير كتابات جيوبرت النوجيني Guibert of Nogeni وهيلدبرت الصوري Hildebert of Tours في القرن الحادي عشر وكتابات بطرس الناسك Peter the Venerable في القرن الثاني عشر الميلادي، ويعقوب الفيتري De vitry ومارتينوس بولونيوس Martinus Polonus وفنسنت البوفوي Vincent of Beauvals وغيرهم في القرن الثالث عشر؛ وقد وقف عل ذكرهم البروفسور غبرييلي في كتابه الذي قمت بترجمته إلى العربية (محمد والفتوحات الإسلامية)[2].

ويبدو إن ما ورد من تفسيرات حاقدة في مؤلفات كتّاب العصور الوسطى قد إثرت في الفرد الأوربي كثيراً، ثم اتسع الاعتماد عليها في تشويه صورة الإسلام حتى أن الشاعر الإيطالي دانتي هو الآخر قد صوّر الرسول الكريم تصويراً حاقداً في الكوميديا الإلهية، وتجاوز تأثير هذه الأساطير والأباطيل حتى امتدّ إلى كتابات القرن السابع عشر للميلاد. ثم بعد أن توسع الأفق الأوربي وظهرت بوادر عصر النهضة الأوربية علمياً وفكرياً، ثم بعدئذ بعد أن تمّ اكتشاف العديد من المخطوطات الإسلامية بشأن

---

(1) A.D, Ancona, " La leggende di Maometto in Occidewt" in Studi di Crilica e Storia Letteraele (Bologne 1912) pp. 167-206.

(2) Holt, P.M. "The treatment of Arabic history by Prideauz, Ocley and Sale" in Historians of the Middle East (London 1964) p. 291.

حياة الرسول والدعوة الإسلامية. فعند قراءة كتاب المستشرق البريطاني همفري بريدو Prideaux الموسوم بـ (حياة محمد The Life of Mohammed) نجده كتاباً مملوءاً بتفسيرات الرهبّان في العصور الوسطى، ولا سيما أنه كان هو الآخر راهباً عمل في كنيسة السيد المسيح في أكسفورد. وتتضح تفسيرات ومواقف بريدو المتعصّبة من رسول الله في كتاب نشره عام ١٦٩٧ يحمل عنواناً حاقداً هو (الطبيعة الحقيقية للدجّال كالتي تظهره بوضوح حياة محمد) وقد ترجم إلى اللغة الفرنسية.

ومما يجب ذكره أن عدداً من المستشرقين المحدثين قد فنّد تلك التفسيرات الضعيفة والملفّقة وأظهروا خطأ قائليها من أمثال ما قام به المستشرق غرونباوم ومونتغومري وات وغبرييلي وسإذرون وساندرز وغيرهم. وأشار بعضهم إلى الدوافع الأساس التي دفعت بل شجعت على ظهور مثل هذه التفاهات؛ إنها وضعت لجعلها محفّزات فعّالة للجندي الصليبي في ساحة المعركة، على إنه إنما يقاتل (الكفّار!) من أجل استرداد بيت المقدس. ومع أنها كتابات مزيّفة وحاقدة، فإنها ما زالت إلى حد الآن تحتّل مكانة غير قليلة من حيث رسوخها في العقلية الغربية؛ وما الرسوم الكاريكاتيرية والمقالات السإذجة الإستهزائية بالإسلام والقرآن الكريم تلك التي تنشر في الدانمارك ولندن وباريس وفلوريدا في أمريكا على لسان البابا إلا نموذجاً من التأثر تلك القصص.